فِدى أبو شقرا عطاالله

مَرام

رواية



صدر للمؤلفة:

- **أفق بلا ملامح**، رواية، دار بركات، بيروت ٢٠٠٦.
- **حكايات نغم**، مجموعة قصصية للأطفال، دار المكتبة الأهليّة، بيروت ٢٠٠٧.
- **رحلة رسّام والألوان**، قصّة للناشئة، دار الفكر اللبناني، بيروت ٢٠٠٨.
- **ابنة البحر**، قصّة للناشئة، دار الفكر اللبناني، بيروت ٢٠٠٨.
- **الدفتر السرّي**، مجموعة قصصيّة، دار الشّمال، طرابلس ٢٠٠٩.
- **العودة**، رواية، دار بركات، بيروت ٢٠١٠.
- **انتظرني**، رواية، دار بركات، بيروت ٢٠١٠.
- **أقرأ، أكتب، أتسلّى**، كتاب أكاديمي للأطفال، دار بركات، بيروت ٢٠١٢.

لوحة الغلاف للفنانة عالية الفارسي
تصميم الغلاف: سومر كوكبي

فِدى أبو شقرا عطاالله

مَرام



الطبعة الأولى 2017

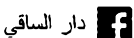
ISBN 978-6-14425-944-3

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 2033–6114
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi



Dar Al Saqi

إهداء

إلى كلّ من دفعني لأمتطيَ الأحلام، وأعلّق أمالي على مشاجب غدٍ مجهول، ولأجعل من رحلةِ الفرار في الحياة رحلةَ قرارٍ ومشروع بقاء...

فِدى

تسللت يداها برفقٍ إلى علبةٍ خشبيّةٍ، وارَتْها منذُ زمنٍ في قعرِ خزانتها، تحت كمٍّ من الثّياب السّود...

انتشلَتْها من صقيعِ ظَلام كفّنها لسنواتٍ، وكاد يُطفئ حرارةَ ما تحملُهُ من ذكرياتٍ...

لا تدري ما الذي جعلها تفتكرُ سرّها الدّفين في هذه اللحظات الحرجة!

لا تدري ما الذي دفعها باتّجاه تلك العلبةِ وشجون أشيائها، وسط الغضبِ المُتفجّرِ في البيتِ!

سألتْ نفسها مرّاتٍ عدّة: ما الذي استجدَّ الآن؟!

أهو عبقُ الماضي الذي لطالما كان واحَتها وسط اليبابِ الذي تحياه، أم هو طيفُ أمّها الرّاقدة في الأبديّة، هذا الطّيف الذي يسكنُها، ويقودُها إلى رسم ملامحِهِ المشوّشة، بعدَ أن عجزتْ ذاكرتُها الطّفوليّةُ عن الاحتفاظِ به وقد مضى عمر من عمرها؟! أم هو الإحساس بأنّ طوقَ الإيمان المختلف الذي أحكمه عمّها، الشيخ أبو محمود، حول البيت وأفراده، قد تصدّع بخبر زواج ابنه الأصغر عماد في أميركا؟!

كلُّ ما تعرفه أنّ هذا الخبرَ الزّلزال الذي هدَّ جَبَروتَ عمّها الشيخ ولوى عنقَهُ، وجنّنَ زوجته، وأعمى بصيرةَ عمّتها، قدْ أنعش جرأتها المخنوقة، وأيقظَ روحَها السّاكنةَ، وحرَّكَ جسدَها المحنّطَ،

فساقَتْها قَدَماها إلى غرفتِها لتقرأَ ذلكَ الشّعور الغريب الذي ضجّتْ بهِ روحُها فجأةً.

نزعَتْ بعفويّةِ المنديلَ الأبيضَ الفضفاضَ الذي يكمُّ فمَها ويأسرُ كتفيْها وهو ينسدلُ حتّى أسفل ظهرِها، وحرّرَتْ جسدَها من ثوبٍ أسود ارتداهُ منذُ ارتسمَتْ معالمُ أنوثتِه، ثمّ أخرجَتْ من العلبةِ الخشبيّةِ ثوبَ نومِ أمّها الخمريّ، وأسقطتْه فوق جسدها الرّقيقِ.

كانت تلزمُها خطوةٌ واحدةٌ وقدرٌ كبيرٌ من الجرأةِ لتواجهَ نفسَها المحرّرةَ في المرآةِ؛ خطوة كانت تختزنُ كلَّ الخوفِ من أن ترى نفسَها مُنتزَعةً من الثوبِ الذي فُرِضَ عليها، ففرضَ على روحها وجسدِها القهرَ والحرمانَ. خطوة ملأى بقلقِ جسدِها الذي صحا للتّوّ من غيبوبتِهِ ليتعرّفَ إلى لونِهِ، إلى شكلِهِ، إلى أبجديّتِهِ بعيدًا عن العفّة بحسبِ قاموسِ عمّها...

تُرى، هل ستتعرّفُ إليها مرآتُها التي ما اعتادتْ يومًا أن ترى منها سوى عينيْن لوزيّتيْن زرقاويْنِ تتفلّتانِ من هذا النقّابِ المشلوحِ أمامها؟!

تْرى، هل ستتعرّفُ إليها مرآتها وهي تكتسي هذا الثّوبِ الخمريّ المتراقص فوق جسدها الأبيضِ، بعد أن ألفتها قامةً ملتحفةً بالسّواد؟

امتدّتْ يداها إلى جسدها وراحتا تتحسّسانِ نعومةَ ساقيْها العاريتيْنِ، وذراعيْها اللذيْن يطلّان بخفرٍ من كمّي الثّوبِ القصيريْنِ... وشَهَقَتْ كالأطفالِ غبطةً. ثمّ خَطَتْ بروحِ المشوقِ، وبجسدٍ ينبضُ زافرًا كلّ الخوفِ الذي يسكنهُ، مُحتفيًا بأنفاسه الجديدة، لتعثرَ على

صورتها الحقيقيّة في مرآتها؛ هذه العجوز التي عاصرتْ جدّتها، وبقيتْ بعد رحيلها صامدةً، متمسّكةً بعنادٍ ببابِ خزانةٍ أرهقتها السنون.

ثبّتتْ سارة قدميْها بالأرض، ثمّ خطَتْ متشبّثةً بالجرأة... وبخطوتيْن اثنتيْن، وقفت أمام نفسها بعينيْن تتّسعانِ دهشةً وذهولًا، وبشفتيْن مكتنزتيْن تتمتمان بلا توقّف: "هذه أنا! هذه أنا! أجل، هذه أنا...".

وإذا بصورة أستاذ اللّغةِ العربيّة، الذي أُغرمَ بعيْنيها، تقفزُ من ذاكرتها وترتسم أمامها!

كان شابًّا وسيمًا تتسابق فتيات المدرسةِ للفوز بإعجابه، بينما هو كان غارقًا في ازرقاقِ عينيْها، ويتخبّطُ في نظراتهما.

كان يختلقُ الأعذارَ ليُبقيها في الصّفِ الأماميّ، على مَقربة منه، كي يبقى مُلتصقًا بعينيْها المسكونتيْن آنًا ببريق الأسى، وآونةً بنظراتٍ مُفترسة ترغبُ في التهامِ العالم المحجوبِ عن جسدها.

كَتَبَ لها يومًا رسالةً دسّها في دفترِ التعبير:

عيناكِ بحر ظالم، يجذبني بأسراره ويغرقني بأعماقه...
إنّهما نجمتانِ مُتلألئتانِ زادهما هذا الحصار بريقًا وتوهّجًا، فأعميا بصري عن رؤية سواهما...
ماذا لو ارتديتِ يومًا ثوبًا أزرقَ بلونِ هاتيْن الرّائعتيْن؟... ستبدين حينها كمخلوق سماويّ منسوج من السّراب، يستحيلُ على رجلٍ أن يُدركَهُ.
ماذا لو توشّحتِ باللّونِ الأحمرِ، لون دمي الذي يثور

حين يُبصرُ عينيْكِ؟... سترتسمين حتمًا أُنثى مُتّقدة جمالًا، تُشعلُ بأنوثتها كلَّ من يشتهي لمسها، وتكويه لوعةً.
ماذا لو سكبتِ فوق جسدكِ ألوانَ قوسِ قُزح؟...
ستشعّين حينها كوميض البرقِ، وتخطفين الأبصارَ قبل أن تتواري.
في كلّ الحالات، يا صاحبةَ العينيْنِ المُعذّبتيْنِ، أنتِ، بلا شكّ، وُجدْتِ للقضاءِ عليّ، ولربّما على كلّ الرجال...

ولا تدري كيف، بعد أن رأتْ وجهها بملامحه المُثيرة، وبعد أن لامستْ جسدها ببشرته الرّخاميّة، عادتْ بها الذّاكرةُ إلى تلك الحادثة!

كان آخر يوم دراسيٍّ في السّنة، حين ترك، ذلك الأستاذ، مفاتيحه عمدًا فوق طاولتها، وخرج من الصّفّ.

خبأت يومها تلك المفاتيح كي لا تأخذها إحدى رفيقاتها وتجعل منها حجّة لتنفرد بالأستاذ.

لم تكن سارة تغارُ عليه منهنّ. ولم تكن تكُنُّ لذلك الفاتن أي إحساس خاصّ. إنّما كان يُعجبها تتيّمه بها. لذا، لم تصحب رفيقاتها إلى الملعب، مُدّعية أنّها ستُصلح منديلها، في حين كانت تنوي أن تذهب بالمفاتيح إليه، لتغنم بوحْدة معه، وتشبع غرورها الأنثويّ من نظراته الهائمة بها. إلا أنّه باغتها، فور خروج الجميع، بدخوله الصّفّ ومحاصرتها بمشاعره الجائعة.

ارتبكت... خافت... وراح الرّعب يدبّ في أوصالها مع كل خطوة يخطوها باتّجاهها. رمت المفاتيح على الطاولة وهي تقول بصوت مرتعش:

- هذه مفاتيحك أستاذ... لقد نسيتها... خذها...

لم يكن يسمع حرفًا ممّا قالته، بعد أن سخّرتْ تلك اللحظاتُ مسامعَهُ لنداء شغفه المجنون بها. فقال لها دون مقدّمات:

- اكشفي عن وجهك.

سكنها هلعٌ رهيبٌ لم تستشعره يومًا! فراحت تُحكم اللّثام حول فمها وهي تتراجع إلى الخلف وتردّد باضطراب:

- لا أستاذ، لا أستطيع... ولا تقترب منّي، أرجوك، أرجوك أستاذ...

توقّف وهو يقول ليسكّن خوفها:

- لا تجزعي. سأبتعد شرط أن تكشفي لي عن وجهك.

- مستحيل!... لن أفعل.

- لا أريد منكِ شيئًا. أريدُ فقط أن أرى شفتيْكِ وابتسامتهما، وإذا كانتا تُطابقان تلك اللوحة النّادرة التي رسمتها لوجهكِ في بالي. اكشفي سارة عن وجهكِ.

أمام إصراره ونظراته المُشبعة برغبته العنيدة، تمسّكت بقفلة منديلها عند فمها وراحت تتوسّل إليه بصوت مخنوق خوفًا من الفضيحة.

- أرجوك أستاذ، أرجوك خذ مفاتيحك ودعني انصرف.

لمعت عيناه وهو يسألها بتحدٍّ:

- ألا أعجبكِ؟

وراح يُراقب صدرها وهو يعلو ويهبط باضطراب، وقد ضاق بأنفاسها المُتسارعة. عندها، أضاف بلهجة ماكرة:

- إذًا أعجبكِ! فلماذا تخفين وجهكِ عنّي؟!

ثمّ تقدّم منها على عجلٍ وطوّقها بذراعه وشدّها إليه وهو يقول:

- أستطيع الآن أن أحلّ هذا المنديل بكلّ بساطة، ولكنّي أريد منكِ أنتِ أن تزيحي السّتار عن أجمل ما ستقع عليه عيناي. هيّا سارة، فكّي هذا المنديل.

ظلّت مُمسكة بقفلة منديلها بيد ترتعد، بينما جسدها النّحيل يتلاشى وسط أنفاسه وهو يقول لها برغبة جامحة:

- رائحة جسدكِ تُثيرني.

حاولت التّفلّت من قبضته، لكن دون جدوى، فراحت تتوسّل إليه بصوت يتلعثم بالخوف:

لا يجوز أن تلمسني أستاذ، لا يجوز... اتركني وإلا صرخت...

حرّرها من ذراعه، فتراجعت كالمجنونة إلى الخلف وهي تقول له:

- أفسح لي الطّريق... دعني أخرج.

تنحّى جانبًا. فهرعت نحو الباب، وما كادت تبلغه حتّى صاح بها:

- تتزوّجينني؟

التفتت إليه باضطراب ترجوه قائلة:

- أرجوك أخفض صوتك.

كرّر سؤاله بلهجة صارمة:

- تتزوّجينني؟

- أنا مخطوبة.

- أعلم.

- ما دمت تعلم، لِمَ تسألني؟!

- لأنّي أحبّكِ، ولأنّني أعلم أنّكِ لا تُريدينه.

- ومن أسرّ لك بذلك؟!

- لا يهم. المهم أنّني أعرف كل شيء عن حياتك.

- لا شأن لك بحياتي.

وهمّت بالخروج، فأوقفها بصوته:

- اسمعي.

التفتت، وإذا بنظراته التي كانت تفيض رغبة، ترتدي فجأة ثوب الرّجاء وهو يزفر الكلمات بشجن:

- تزوّجيني. سأحرّركِ من هذا الثّوب، ولن أُلبسكِ إلا ما يكشف جمالكِ ويجعلكِ أسطورة يحسدني عليها رجال العالم. تزوّجيني وسأطربكِ كلّ العمر بقصائد حبٍّ وغزلٍ، تكونين فيها كل المعشوقات اللواتي مرَرْنَ في تاريخ الحبّ ونسجْنَ أساطيره. تزوّجيني لأسكب الخمر، كلّ ليلة، فوق جسدكِ الحلم، وأثمل منكما. لا... لا... فبعد زواجي منكِ لن أحتاج إلى الخمر؛ فجمالكِ كافٍ ليشعرني بالثّمالة.

كلماته هذه التي طنّت في أذنيْها، أعادتها إلى مرآتها، فرفعت

سبّابتها تتحسّس شفتيْها المكتنزتيْن وتتفرّس في وجهها وتفاصيله الدّقيقة كما لو أنها لم ترها من قبل، متسائلة بغبطةٍ لا تخلو من الغرور:

- لقد أمطرني بذلك الكلام الشّاعري العذب ولم يرَ منّي سوى عينيّ، ماذا سيقول لو رآني كما أرى نفسي الآن في مرآتي؟

وإذ بباب الغرفة ينفتح... جَفلتْ سارة وسترت جسدها بباب الخزانة المفتوح.

دخلت عمّتها، وهالها ما رأت!

أوصدت العمّة باب الغرفة بسرعة وأقفلته بالمفتاح، ثمّ اتّجهت إلى سارة والصّدمة تكسو وجهها :

- ظننتُكِ ترسمين، فإذا بكِ تفعلين ما هو أشنع! أنتِ حقًا جُننتِ!

عادت سارة بهدوء إلى مرآتها غير مُكترثة بما أصاب عمتها من ذهول ساخط، وهي تقول بلا مبالاة:

- اطمئنّي عمّتي، أنا عاقلة ولم أُجنّ.

ثمّ راحت تتمايل بغنج ودلالٍ وهي تسأل عمّتها بكلّ ثقةٍ:

- ألا يليق بي هذا الثوّب الخمريّ، عمّتي؟

نزعت عمّتها الشّرشف الذي يُغطّي السّرير، بسرعة البرق، ولفّت به جسد سارة وهي تقول بصوتٍ خافتٍ باكٍ:

- ما هذه الكارثة يا ربّي؟ عماد يتزوّج من أمريكيّة، وهذه الأخرى تتعرّى أمام المرآة! سامحهما يا ربّ، وردهما إلى الصّواب.

انتزعت سارة الشّرشف عن جسدها بغضبٍ، صارخة في وجه عمّتها:

- أنا لست عارية.

استشاطت عمّتها غيظًا، فأمسكت بذراع سارة وراحت تهزّها بعنفٍ وهي تؤنّبها بصوت مكتومٍ خوفًا من أن يسمعها أحد في البيت:

- وماذا تسمّين وقوفكِ أمام المرآة بهذا الثّوب؟! يا خجلي... يا خجلي... من أين أتيتِ به؟! ومن أين لكِ هذه العلبة وأشياؤها؟

- هذه العلبة كانت قبل الآن سرّي الدّفين. لكن منذ هذه اللحظة لم يعد من داعٍ لإخفائها عن أحد. فلن يكون بعد اليوم من أسرارٍ في حياتي. سأجاهر بكلّ ما يدور في خاطري، وسأعلن دون خوفٍ أو وجلٍ عمّا أتوق إليه. أنا أحرّض نفسي على ذلك، أحرّض نفسي كلّ لحظة على ذلك.

تنهّدت العمّة عميقًا وكأنّها تُحاول أن تستوعب هذا الموقف، وقالت لها بهدوءٍ مُصطنع:

- لم تجيبي حبيبتي عن سؤالي. من أين لكِ هذه العلبة وما فيها؟! من أين لكِ هذا الثوب، سارة؟!

همدَتْ سارة كمن أُصيب بهزيمة، وغار صوتها في شجن دفين وهي تُجيب:

- هذا الثّوب لأمّي، وكلّ هذه الأشياء التي ترينها عاشت معها ولامست جسدها...

صمتت وقد خنقتها العبرات، ثمّ تابعت تقول وهي تتلعثم بأحزانها:

- صوتها لا يزال يتردّد في مسامعي وهي تقول لي، بعد أن

تتبرّج وترتدي هذه الثّياب الرّقيقة: "صغيرتي، لا تُخبري أحدًا بما أفعله. هذا سرّنا نحن الاثنتيْن". وبعد أن تُشبعَ نظرها من جمالها، أمام المرآة، كانت تواري هذه العلبة في قعر خزانتها، تحت جبل من الثّياب، كي لا يعثر عليها أحد. وعندما فَقَدْتُها، خفْتُ على سرّها أن ينفضحَ، فخبّأتُ هذه العلبة في خزانتي. تذكرين، عمّتي، أنّي كنتُ أمنعكِ من الاقتراب من الخزانة بحجّة أنني قادرة على ترتيبها بنفسي؟ ليتني أذكر ملامحها وهي ترتدي هذا الثّوب! انظري إليّ عمّتي، هل أُشبهها وانا أرتدي ثوبها؟

– وما أدراني حبيبتي؟ أنا لم أرها يومًا به.

ثمّ اقتربت من سارة ومرّرتْ كفّيْها حول وجهها النّضر، وهي تؤكّد لها:

– تحملين ملامح كثيرة من أمّك، خاصّة هاتيْن الشّفتيْن المُكتنزتيْن.

التقطت، بعد ذلك، فستان سارة الأسود ومنديلها الأبيض المشلوحين على الأرض، وقالت بنبرة لا تخلو من الاستجداء:

استري عريك حبيبتي.

استفزّها طلب عمّتها، فراحت تجول الغرفة من دون وعي وهي تصرخ قائلة:

– عن أيّ عري تتحدّثين عمّتي؟! فبمثل هذا الثوب، تخرجُ الفتيات إلى الشّارع، ويظهرنَ في الإعلانات المزروعة على الطّرقات، ويتألّقنَ على شاشات التّلفزيون الذي لا أشاهده إلا خلسة عن عمّي. حتّى أنّ فساتين السّهرات التي ترتديها نساء قريتنا

مكشوفة أكثر منه!

وكأنّ صورة الفتيات المتحرّرات التي عبرت كلامها، أنعشت روحها وقادتها إلى مرآتها من جديد، لتتأمّل نفسها، وهي تسأل عمّتها:

- قولي لي عمّتي، ألا أبدو جميلة مثلهنّ؟

ثم أخذت تحلّ ضفيرتها بانفعال وعجلة، وراحت تُمرّر أصابعها بين خصلات شعرها المُنسكبة ذهبًا فوق ظهرها. وما إن انتهت من فرده حتّى صاحت باغتباط الأطفال:

- عمّتي، ألا أبدو "كالباربي" التي اشتريتها لي عندما اجتزتُ المرحلة الابتدائيّة بتفوّق؟

ضمّتها عمّتها إلى صدرها بحنان، وربّتت على كتفها وهي تُجيبها بفخر:

- لطالما أدهشتِ النّاس بجمالكِ منذ طفولتكِ! رشاد شاب محظوظ.

ثم رفعت فستان سارة الأسود، من جديد، عن الأرض وكرّرت طلبها:

- خذي وتستّري.

أخذت سارة الفستان من عمّتها ورمته فوق السرير بعصبيّة وهي تُعلن بإصرار:

- لن يراني رشاد هكذا حتّى في أحلامه. ولن أكون له، تذكّري ذلك عمّتي.

وارتمت فوق السّرير وهي تردّد بعناد:

- لن أتستّر، لن أتستّر. سأنام وأنا أرتدي هذا الثوب، يحلو لي النّوم هكذا. سأستعيد معه تلك الليالي التي أمضيتها في حضن أمّي.

تربّعت فوق السّرير، وجمعت تنّورة الثّوب الواسعة بين يديها، ثمّ انحنت تعبّ من رائحة قماشها. فجأةً، ذاب انفعالها، وانصهر ذلك التّحدّي في صوتها، وأخذت تهمسُ كلامها همسًا متقطّعًا وهي تتنشّق عطر الثوب بشغفٍ، خوفًا من أن يتبدّد وينسحبُ كما انسحبت صاحبته من الحياة وتركتها في مهبّ الأحزان:

- ها أنا أشتمّ عطر جسدها، عمّتي... رائحة جلدها النّاعم تتكوّم في كفيّ... أشعر بذراعيْها تطوّقان كتفيّ العاريْن... أشعر بدفء حضنها، بأنفاسها وهي تغلّ وجهها في شعري...

وازدادت همساتها حسرة، مستنكرة بدموعها هذا التّيه الذي تعيشه:

- لماذا امّحت ملامحها من ذاكرتي؟ لماذا وجهها لا يرتسم أمام عينيّ إلا مشوّشًا، مستورًا بالنّسيان؟! لماذا لم تحتفظوا بصورة لوجهها من دون هذا المنديل الذي يكمّ أنفاسنا؟

شهقت واستسلمت لنحيب مؤلم:

- اشتقتُ إليها عمّتي. شوقي إليها أذبل الحياة في عينيّ ويكاد يُطفئ روحي. ليتني أعثر على قبلاتها فوق جسدي لأتحسّس حنانها. أتوق إلى حنانها عمّتي...

ثمّ تجمّعت على نفسها وهي تجهش في البكاء، متوسّلة إلى الله:

- ربّي أرجوك ساعدني لأتذكّر وجهها. لقد حرمتني منها فلا تحرمني ذكراها...

هرعت عمّتها إليها باكية وحضنتها بحنان أمّ رؤوم، وراحت تُدغدغ شعرها وتمسح الدّموع عن وجهها وهي تقول بلهفة:

- سأبحث في كلّ ركن في البيت، ربما أعثر على صورة أفلتت من والدك ولم ترحل مع رحيله. سنجد واحدة... حتمًا سنجد واحدة يا حبيبتي.

ثمّ مدّدت جسم سارة فوق السرير، وكمرته بغطاء رقيق وهي تهمس لتُهدّئ ثورة حزنها:

- هوّني عليكِ حبيبتي، ونامي الآن. غدًا سيكون أفضل.

انقضى أسبوعان، وبدأ أيلول المتهيّئ لمداهمة الطّبيعة، يُرسل في تلك الليلة مع ذيول آب، رسائل مُبكرة من نسائمه الباردة، تُذكّر أهالي القرية بأنّ الخريف قادم بطبعه المزاجيّ الشّرس في الجبل.

لفّت سارة رأسها وكتفيْها بشالٍ صوفيٍّ أسود، وودّعت جلال وزوجته وولديْهما، ثمّ خرجت مُسرعة من القبو حيث يسكنون، لتصعد إلى البيت قبل عودة عمّها من مجلس العبادة.

كانت سهرة الأحد، أو كما يسمّيها الدّروز "ليلة الاثنين"، وكان موعدها مع التلفاز لتشاهد برنامج "سوبر ستار" الذّي ضجّ به البلد والعالم العربيّ، وذلك سرًّا عن عمّها الذي يذهب في مثل تلك اللّيلة من كلّ أسبوع إلى مجلس العبادة.

لا تدري لماذا تلك الليلة بالذّات، وهي تصعد أدراج البيت، عادت شجون الماضي تجتاحها، وراح الحرمان يقرع صدرها ويفتح صفحات من ذاكرتها، ليتوقّف عند حادثة تتذكرها جيّدًا، ولا تنسى حرفا واحدا ممّا قالته تلك السّيّدة الجميلة منذ أكثر من عشر سنوات.

كانت تلك السيّدة التي لا تتذكر اسمها، قد أتت إلى القرية بحكم عمل زوجها، واستقرّا فيها لفترة من الزّمن. وقرّرت عمّتها صباح يوم أن تزورها لترحّب بإقامتها في وسطهم، كما تجري العادة في القرى، واصطحبت سارة معها.

تذكر سارة أنّ تلك السّيّدة رحّبت بها كثيرًا، ووضعتها في حضنها وأخذت تتأمّل وجهها الصّغير وهي تكرّر باندهاش: "ما شاء الله". ثمّ راحت تلامس الرّسومات المنسوجة بصوف كنزتها وهي تقول لها:

- كنزتكِ جميلة مثلكِ. أتحبّين "السّنافر" إلى هذا الحدّ؟

لم تعِ سارة ما تقصده السّيّدة لأنّها كانت تجهل السّنافر جهلًا تامًّا. فأجابتها باستغراب:

- ما معنى سنافر؟!

ابتسمت السّيّدة ابتسامة باهتة وهي تجيب سارة:

- هذه المخلوقات الزّرقاء المنسوجة في كنزتكِ تدعى سنافر. ألا تُشاهدينها في "التلفزيون"؟!

أجابتها العمة على الفور، وقد ظهر الحياء على وجهها:

- نحن لا نملك "تلفزيون"... عمّها، الشّيخ محمود، لا يسمح لها بمشاهدته.

صُعقَتْ تلك السّيّدة اللطيفة، إلا أنّها لم تُعلّق بكلمة واحدة على الموضوع. لكنّ سارة تشعر الآن، وهي في العشرين من عمرها، بكلّ كلمات الدّهشة والاستغراب التي تزاحمت فوق لسان السّيّدة، ولم تتجرّأ على التّلفّظ بها لأنّها كانت غريبة تُقيم بين غرباء.

بعد كلّ تلك السّنوات، باتت تعلم ما معنى أن تشبّ الطّفلة دون أن تُشاهد التلفزيون. ما معنى أن تنظر بانبهار إلى هذا الشيء وتظنّه صندوق عجائب، في حين هو حاجة أساسيّة من حاجات الإنسان، ومشاهدته عادة يوميّة من عادات أترابها.

تنهّدت سارة وتابعت صعود الأدراج وهي تكمّ تلك البئر العميقة التي حفرتها في صدرها لتكون مقبرةً لأحلامها.

كان كلّما لاح لها حلم من أحلامها، وطفا ليسكن عينيها أو ليغزو لسانها، تجده يصطدم بجبال من الخوف والوهم، بناها هذا التّمادي الدينيّ الذي يتمسّك به عمّها. فتعود وترمي بأَحلامها في تلك البئر التي امتلأت حتّى الخناق، وباتت تُنذر بالانفجار.

أجل، الانفجار بات قريبًا؛ فهي تُحرّض نفسها كل يومٍ على الرّفض والرّفض والعصيان. ولن ترضى أبدًا أن تبقى الشابّة المنطوية المتخلّفة عن أترابها، والتي اعتادت الطّاعة والطّاعة ثمّ الطّاعة.

وصلت إلى باب البيت، فأحسّت بالضّيق قبل أن تدخله.

جلست على العتبة وراحت تُقلّب أحلامها البسيطة التي لا تتعدّى أحلام الأطفال.

أمور عاديّة باتت، رغم تفاهتها، أحلامًا صعبة المنال على شابّة مدسوسة في الظّلام منذ طفولتها.

كلّ ما تطلبه، أن تعبثَ بالألوان فوق الورق والقماش، وأن ترسم ما تشاء ومتى تشاء.

كلّ ما تودّه، أن تسكن وسط القرية، في سوقها العامر بالنّاس، وأن تُقتلع من هذا البيت المُتنسّك بين الكروم وأحراج السّنديان والملّول؛ هذا البيت "الرّاقد في آخر العالم"، كما كان يقول لها عماد، ابن عمّها، وهما عائدان من المدرسة سيرًا على الأقدام.

وجلّ ما تتمنّاه، أن تستيقظ صباحًا في بيروت على صوت الباعة وهدير السّيارات. أن تسمع الحياة تدبّ في أذنيْها وتقرع ناقوس

الوقت الذي تهضمه حياتها في هذا البيت، دون فائدة.

كم تحلم بأن ترفع الكتب، المُحرّمة عليها قراءتها، من مخبئها، وتعبّر عن إجلالها لها بأن تجعلها تتألّق على الرّفوف، لأنّها ملأت الفجوة التي أحدثها في داخلها انسلاخُها عن الحياة السّائدة وتكفينُها بآراء يُسندونها إلى الدّين لكي تُصدّقها هي كما يُصدّقونها هم!

كم تتمنّى أن ترفع صوت المذياع على أغنية تحبّها، وتطلق جسدها ليناغيَها كيفما يشاء!

كم تتوق إلى تلفاز في بيتها لتتابع البرامج التي تُريد، لا البرامج التي يسمح بها غياب عمّها!

ليس غريبًا أن تشعر أنّها على رصيف الحياة، والكلّ يخوض غمارها ويسعى ليتسلّق قممها، بينما هي راكنة عند أقدامها، يتخطّاها العابرون.

ليس غريبًا أن تشعر أنها تافهة وصغيرة، صغيرة جدًّا، بحجم نملة، كلّ همّها في الحياة ينحصر في جمع مؤونتها كي لا تموت جوعًا.

كم كانت جائعة إلى الحريّة حتّى في إيمانها!

أسندت رأسها إلى الباب ورفعت بصرها إلى السّماء، فبدت بسواد ثوبها، والسّماء بغياب قمرها واستتار نجومها، كتوأميْن أنجبتهما تلك العتمة الحالكة التي تغمر المكان.

أحسّت سارة فجأة بأنّ الانكماش في صدرها بدأ يتبدّد، بعد أن شعرت بأن جسدها المأسور بالسواد، والمنقبض داخل

ثوبه المعتم، يتماهى مع الظلمات ويتمدّد ويتّسع باتّساع العتمة الملتحمة مع السماء.

تذكّرت حينها، أنّها أحبّت مرّة هذا الثوب الذي فرضه عمّها عليها، وأحسّت أنّه مُتّسع المسامات، قابل لاستنشاق الحريّة. كان ذلك منذ خمس سنوات، عندما دخلت الصّفّ التّاسع وتعرّفت إلى أستاذ اللغة العربيّة الجديد. كان شيخًا وقورًا في العقد الرّابع من عمره، يرتدي زي الدّين ويقف بكلّ ثقة واعتزاز.

أول ما تبادر إلى ذهنها عندما رأته، قصيدة الشّاعر نزار قبّاني "ماذا أقول له؟" التي يُستهلّ بها الكتاب. وسألت نفسها: "هل سيشرح لنا هذه القصيدة، أم سيتجاهلها ويقفز إلى درس آخر؟".

وقبل أن تتوقّع الجواب، بدأ الأستاذ المتديّن يقرأ القصيدة.

اختطف الجميع بصوته وهو يُلقيها بنبرة رخيمة، تعلو وتهبط مع إيقاع المشاعر، متذوّقًا طعم الكلمات، فاردًا إحساسه فوق الأبيات، زافرًا وَلَهَ تلك العاشقة الحائرة، برهافة إحساسٍ بلغ أوجه في مناجاتها:

رباه أشياؤه الصّغرى تُعذّبني فكيف أنجو من الأشياء ربّاه؟
وكيف أهرب منه إنّه قدري هل يملك النّهر تغييرًا لمجراه؟

ثمّ راح يتنقّل من بيت إلى آخر، شارحًا، مُحلّلًا، معبّرًا... فبدت القصيدة لوحةً، ودّت سارة لو ترسمها كما ارتسمت بين شفتيه، لكن من أين كان لها أن تبتكر لونًا لصوته؟

خرج الأستاذ من الحصّة بعد أن أدخل إحساسه في شرايينها، وزرع في داخلها استفهامات لا تزال تتردّد في بالها حتّى يومها

هذا: هل أساء ذلك الأستاذ إلى الدين حين أشبع تلاميذه لغة وأدبًا؟ هل ابتعد عن مذهب التوحيد حين جذب تلاميذه إلى الإبداع الأدبيّ الذي زرعه الله في هذا الشّاعر المختلف؟ وهل سيحاسبه الله لأنّه تفوّه بمشاعر عاشقة في قصيدة، مؤدّيًا بكلّ ضمير واجبَهُ المهنيّ؟

أسئلة بقيت تتأرجح في الفراغ بانتظار أجوبة تعرفها ولا تقوى على التّلفّظ بها، خوفًا من نفسها المسكونة بالهلع من عمّها.

كم تمنّت لو كان الأستاذ المتديّن والمتحرّر في آن واحد، هو عمّها البديل عن أبيها، ليعلّمها الدّين بطريقته المُنفتحة، وليجعلها تتعبّد بأسلوبه المنطقيّ، وليقربها من الله بشاعريّته وإحساسه الرّاقي.

حمدت الله أنّ عمّها لم يسمع بذلك الأستاذ وإلا لكان حرمها المدرسة كما حرمها الجامعة، ثمّ لملمت خيبتها وانتصبت تهمّ بقرع الباب. وإذا بالباب ينفتح ويطلّ منه وجه عمّتها الحانق، وصوتها الصارم يونّبها:

- أنتِ هنا؟! لماذا تأخّرتِ؟ عمّكِ أتى باكرًا وهو يغلي غضبًا. ادخلي.

دخلت سارة البيت... فلا مفرّ لها من مواجهة مع عمّها...

سرى الخوف في أوصالها وهي تتبع عمّتها التي تردّد دون انقطاع: "الله يستر، الله يستر...".

عرفت سارة أنّ غطرسة عمّها قد بلغت أوجها، ولا بدّ من أنّه منذ وصوله إلى البيت وهو يصول ويجول في مساحة الممنوعات المفروضة على أصحاب هذا المنزل، وأوّلها عدم الخروج ليلًا من البيت.

تناهت إلى مسامعها همهمة صوته الجهوريّ القاسي. بدأ جسدها الرّقيق يرتعش خوفًا، وبدأت قدماها تتعثّران، من شدّة الهلع، بأذيال ثوبها وهي تجتاز الممرّ المفضي إلى غرفته.

كَرهت ضعفها وخنوعها، وتمنّت لو تموت أو تختفي لتتحرّر من كلاليب هذا الأسر وجلاده.

حَرنت أمام باب الغرفة الموصود تتوسّل الجرأة أن تقلّها إلى الدّاخل.

بدأت تستنجد بربّها الذي كتب عليها هذه الحياة المرّة، مع ذكرى أمّ غيّبها الموت وأب سائح في الدّنيا لا يُعرف له خبر، وفي كنف عمّ متحجّر العقل ولا يعرف الرّحمة. وترجوه أن يُرفق بها ويُعينها على اجتياز هذا الموقف، وأن يُهديَها إلى سبيل يعتقها من حياة لا تبغيها.

سحبتها عمّتها من يدها وفتحت باب الغرفة، وإذا بها وجهًا لوجه أمام الغضب...

وقفت مأسورة بنظراته المُتّقدة غيظًا، تتفرّس وجهه العبوس وأصابعه المضطّربة وهي تُمشّط لحيته البيضاء.

أمام مظهره الرهيب المريب استفزّها هوانُها، فسألت نفسها: " لِمَ أنا خائفة إلى هذا الحدّ من هذا المتلذّذ بالهروب من الحياة؟! أليست هذه هي اللحظة التي تمنّيتها ووعدتُ نفسي بها مرارًا لأنقذ روحي من أسر قد يودي بي إلى الموت أو إلى الجنون؟! ممّ أنا جزعة؟ فما أتوقّعه من هذا الغاضب أمامي، رغم بشاعته، سيكون ألطف حالًا من الوحدة والحرمان المحكومة بهما إلى الأبد".

أومأ عمّها أبو محمود إلى أخته وزوجته لتنصرفا. أراد أن يحاصرها بسلطته...

- أين كنتِ؟

قالها ونظراته تنزل كالسّياط على جسدها.

استيقظ العنفوان في داخلها حتّى بات يوازي جبروت عمّها. فأجابته ببساطة:

- عجبًا، ألم تقولا لك أنّني كنت أزور زوجة جلال؟!

- وماذا تفعلين عندها لغاية هذا الوقت؟

أرادت سارة أن تصرخ بالحقيقة وتقول ملء فمها: "كنت أشاهد التلفزيون وأُشبع حرماني منه". لكنّها فضّلت كتمانها لأنّ هاتين المسكينتيْن الواقفتيْن خلف الباب خوفًا عليها، سيفرض عليهما جمع موسم الزّيتون بنفسيْهما، وستشاركهما هي في هذا الشّقاء، بعد أن يطرد عمّها جلال وعائلته لأنّهم تجاوزوا محرّمات هذا البيت. لذا آثرت القول:

- أساعدها في حياكة كنزة لابنتها قبل أن يهجم الصّقيع.

- وكيف تبقين خارج البيت حتّى هذه السّاعة؟

- إنّها العاشرة فقط، ولم أذهب بعيدًا. كنتُ في الطّابق السّفليّ!

- حدودكِ عتبة هذا البيت إلى أن تتزوّجي.

ابتلعت خوفها وسألته بهدوء:

- عمّي، ما الذي يميّز حياتي عن حياتَي عمّتي وخالتي أم محمود؟

- وما وراء سؤالك؟

- سؤالي واضح عمّي. أنا في العشرين من عمري وأعيش نمط حياة امرأتيْن على مشارف الستّين.

- أنتِ تعيشين حياة البنت الشريفة الطّاهرة، الحياة التي تليق بأخلاقنا لأننا نسلك شرع الله.

- وكيف تعرف عمّي أنّني شريفة وأنت تسجنني في البيت؟ أطلقني في الحياة واختبرني. عندها سأثبت لك أنّني شريفة وأجعلك فخورًا بي.

- أيّتها الجاحدة. أنا أريدك إنسانة فاضلة، أجنّبك الرّذائل وأنتِ تُطالبين بها؟

- الفاضل لا يكون فاضلًا بابتعاده عن الرّذائل، بل بعدم اشتهائها. وأنا لا أشتهي الرّذيلة لأن إيماني نابع من عمق نفسي، ولا علاقة لقوانينك وللثّوب الذي أرتديه بهذا الإيمان الصّافي.

- من أين لكِ هذا الكلام؟ من علمّك هذا التّمرّد؟ انطقي.

- القهر والحرمان المحكومة بهما في سجنك، عمّي. أريد أن أعيش الحياة كما يحياها كلّ الناس. الحياة تمشي وتتطوّر ونحن المتخلّفين قابعون خلفها، نجهل أبسط أشيائها؛ فالتّلفاز، الذي بات كفردٍ من أفراد المنزل في أصغر أصغر قرية في أقصى أقصى العالم، أنت تحرّمه علينا لأنّه برأيك يهدر وقت العبادة، ويفتح الأنظار على ما هو محظور. وهل من شيء غير محظور في حياتنا؟!

عندها اقتحمت عمّتها الغرفة وأطبقت كفّها على فم سارة لتوقفها عن قول المزيد، خوفًا عليها من غضب أبي محمود، وهي تقول لها:

- اخرسي سارة، اخرسي.

ذهل أبو محمود من ثورتها هذه؛ ثورة لم يتوقّعها من سارة التي ما عوّدته سوى الخضوع والامتثال لقواعده وقوانينه.

جمد في مكانه صامتًا، ينظر إليها نظرات حادّة تكاد تفترسها. لكنّها كانت قد تخطّت حاجز الوهم، وداست الخطّ الأحمر القائم بينهما. فرفعت كفّ عمّتها عن فمها، وأضافت بنبرة عالية:

- لا أسمع منكم سوى "الدنيا فانية ونحن لنا الآخرة"؛ صحيح أنّها فانية، ولكنّها اليوم قائمة، ومن حقّنا أن نمتصّ رحيقها. الحياة لا تلذّ لها الإقامة في الأمس، لكن نحن تلذّ لنا الإقامة في الأمس، وقبل الأمس، وقبل قبل الأمس...

التقطت أنفاسها لتقول بنبرة أعلى:

- من يتخلَّ عن الحياة، فالحياة تنساه في سجلّ أرقامها. هذا ما قاله كمال جنبلاط المفكر والمتصوّف الدرزيّ، عمّي. أنا أريد أن أرتقي، وأن أكبر. لا أريد الاستقرار مثلكم على هامش منسيّ. أريد أن ألتحق بالجامعة، أن أتعلّم، وأن أعمل كغيري ممن يرتدين زيّ الدين.

فَقَدَ أبو محمود صبره، فاجتاز المسافة التي تفصلهما بخطوتيْن اثنتيْن وصفعها صفعة لوت عنقها وهو يصرخ بها بصوت مدوٍّ:

- وترفعين صوتكِ في وجهي؟!

ثمّ قبض على ذراعها بيده الغليظة وجرّها بعنفٍ إلى غرفتها، وزوجته وأخته تولولان خلفه وتتوسّلان إليه الرأفة بها.

دفعها بقوّة فوق السرير وهو يقول بلهجة صارمة:

- أخرجي الكتب التي لوّثتْ لسانك بهذا الكلام.

- لا أملك كتبًا.

- وتكذبين؟! سأنقّب عنها بنفسي وأتلفها أمام عينيْكِ.

خافت سارة من أن تقع العلبة الخشبيّة التي تحتوي أشياء أمّها بين يديه. فأسرعت ورفعت الفراش لتكشف عن الكتب المرصوفة تحته.

التفت أبو محمود إلى زوجته قائلًا:

- ضعيها في كيس، ونادي جلال ليأخذها. قولي له أن يعطيها لمن يرغب فتكون غذاءً سامًّا للّذين لا يعرفون دينهم.

كان الفجر يشقّ ثوب اللّيل، ويتسلّل بخيوط ضيائه من خلف الحرج، فيطوي الظّلمات شيئًا فشيئًا، ويرمي بها وراء الأفق الممتدّ على طول البيادر وحقول الزيتون. وكانت عينا سارة الذّابلتان، المتّشحتان بالدّموع، تلامسان السّماء بنظراتهما الشّغوفة وهي تغتسل من سوادها بالنّور.

كم كانت تغار من الطّبيعة في تلك اللحظات!

كم كانت تحسد الطّبيعة على جرأتها، وهي تنزع عنها ثوبها الأسود وتكتسي بالنّور، لتظهر للعيان متألّقة بكلّ الألوان التي خلقها الله!

راحت تتلو صلاة فجرها ككلّ يوم، متضرّعة إلى الله أن ينفض عنها الظّلمات، ويجلو العتمة التي ظلمت جسدها، وصعّبت عليها مسالك الحياة.

رغم معايشتها هذا اللقاء اليوميّ، بين بيارق النّور وغياهب الظّلام، ما زالت تُدهشها تلك اللّحظات التي تتقهقر فيها العتمة لتنفرج أسارير الحياة.

كثيرًا ما كانت تسأل نفسها وهي تُشيّع اللّيل بنظراتها: إذا كان الله بجلاله قد جعل الحياة نصفها ليل ونصفها الآخر نهار، فلماذا يجعل عمّها من حياتها ليلًا دائمًا؟

غير أن لقاء سارة مع الفجر، في ذلك اليوم، جعلها تطرح على

نفسها سؤالا ملحًّا: ما الذي يُجبرها على الاستمرار في الرّضوخ لهذا الواقع؟! فهي بعد تلك المواجهة القاسية مع عمّها، ما عادت تخشاه؛ الخوف زال، الوهم امّحى، وأحلامها التي تتوالد كلّ يوم تحفّز تمرّدها على هذا الواقع، خاصّة بعد أن خطا أيلول خطواته الأولى، وبدأ يُنذرها بأنّ العام الجامعيّ قد ينطلق من دونها، كما في العامين الفائتيْن، إن لم تُسارع وتلح وتصرّ وتأخذ قرارها مهما كانت نتائجه.

ولِمَ لا؟! ما دام عمّها نفسه يردّد على مسامعها كلّ يوم، بأنّ حياتنا ملك الخالق لا ملك عبيده. فبأيّ حقٍّ إذًا يستعبد هو حياتها؟! وبأيّ منطقٍ يُلبسها ما يُريد، ويزوّجها ممن يُريد، ويُجبرها على الإيمان كما يريد؟!

تنفّست ملء رئتيْها تستجدي فرحًا منتظرًا، ورفعت وجهها إلى السّماء تناجي الله:

ربّ منحتني الرّوح في هذا الجسد، فساعدني لأحرّره، ولأحيا فيه وفق مشيئتك.
أغثني برحمتك من ضيق ضاق به صدري.
أنقذني من فكر نسجوا أغلاله باسمك، ونسبوه لمشيئتك يا سيّد المعرفة الكليّة.
افتح لي أبواب الحريّة.
أخرجني من هذا الكهف.
اجعل الحياة تلحظني لأشعر بأنّ قلبي لا يزال يعزف أنشودتها.

أحبّك ربِّ، وأعشق ما وهبتنا إيّاه، وأوقن بأنّك جعلت من الطّبيعة وفصولها عبرة للإنسان. وها أنا الآن في ربيع العمر زهرة ذابلة، تُطبق على نفسها في ركن قصيّ ناءٍ عن الحياة.

ساعدني ربِّ... لا أريد أن يفوتني ربيع العمر... لا تجعلهم يسلبونني إيّاه.

زدني إيمانًا بك لأزداد حكمة وتعقّلًا، فالتمرّد بات بركانًا يغلي في روحي... أعنّي لأجد منفسًا له قبل أن يثور ويكوي بحممه من هم حولي.

قطع مناجاتها طرق على باب القبو حيث يسكن جلال وعائلته. استرقت النّظر من خلف السّتائر، فإذا بعمّها ينتظر جلال ليخرجا معًا إلى الكروم لتنقيتها من الأعشاب واليباس قبل حلول موعد جمع موسم الزيتون.

بقيت سارة مُسمّرة أمام النّافذة بانتظار ذهابهما. وما إن توارت قامتاهما عن نظرها، حتّى لفّت رأسها بمنديلها الفضفاض، مُحكمة اللّثام فوق فمها، وانسلّت من باب البيت خلسة، خوفًا من أن تعترضها عمّتها أو زوجة عمّها.

نزلت الدّرج بخفّة، وراحت قدماها تبتلعان الدّرب باتّجاه بيت خطيبها رشاد، الكائن عند مدخل ساحة القرية، غير آبهة بذيل ثوبها الذي يلوكه حذاؤها بين الفينة والأخرى، مُهدّدًا إيّاها بالسّقوط، وغير مُكترثة لما سيؤوّله أهل القرية، وأم رشاد بالتّحديد، عن زيارتها لخطيبها وحدها، وفي مثل هذه الوقت المبكر، ذلك لأنّ

كلّ ما كان يهمّها، أن تحسم أمرها في ذلك اليوم، في ذلك اليوم بالتّحديد.

كانت تعرف أنّ خطوتها تجاه رشاد هي خطوة فاشلة لا محال. لكن كان لا بدّ لها من هذه المحاولة لطرق باب الجامعة؛ فهذه المحاولة، رغم ما تحمله من انكسار لكبريائها، من شأنها، إن تجاوب خطيبها لطلبها، أن تُخمد ثورتها وتهدّئ تمرّدها وتحميها من فكرة جهنّميّة ملحاحة لا تُبارح رأسها.

وعلى الرّغم من خوفها من فشل محاولتها مع رشاد، وعلى الرغم من كلّ القلق والاضطراب اللذين يسكنانها، داهمها شعور جميل ومريح لا تفقه له اسمًا، ولم يُلامس روحها من قبل!

فهي للمرّة الأولى تخرج من البيت وحدها، من دون رفيق رقيب!

فهي للمرّة الأولى تدوس قانون عمّها مع سبق إصرار، ودون أن تخشى محاكمته!

فهي للمرّة الأولى تخطو بناءً على قرار هي اتّخذته، وتنطلق نحو هدف ترنو إليه بإصرار؛ إصرار يضجّ في داخلها بصوت صارخ لا يُكتم، ويشحنها بطاقة هادرة لا تُخمد!

فهي للمرّة الأولى تشعر بشيء اسمه "الحريّة"!

طوال الطّريق المتعرّج والملتفّ حول الدّور والكروم، وصولًا إلى السّاحة، كانت سارة تسير بلا هوادة، غافلة عن كلّ من حولها: صيّادي الطّيور، الرّعاة، الغادين والغاديات إلى الحقول... مأخوذة بسؤال لطالما عجزت عن العثور على جواب له: ما سبب تمسّك خطيبها رشاد بها رغم جفائها له؟

أهو ثوب الدّين الذي يُناسب ثوبه ويتناسب مع أفكاره وقوانين بيئته؟

حتمًا لا. لأنّ اللواتي يرتدينه كثيرات في القرية وجوارها، لكنّه اختارها هي بالذّات من بينهنّ.

أهي الرّغبة في التّقرّب من عمّها لمكانته المرموقة في الوسط الاجتماعيّ والدّينيّ؟

احتمال باطل. فهو ابن الشّيخ المتّزن والمحترم، لا يحتاج إلى مثل هذا التّملّق.

أيكون إذًا الطّمع ببعض حقول الزّيتون التي ستؤول إليها عند زواجه منها، كونها المالك الوحيد لها بعد انقطاع أخبار والدها؟

أمر بعيد، وبعيد جدًّا عن رشاد، وحيد أهله الذين يملكون مساحات واسعة من الأراضي المُثمرة، فلا تعوزه أملاك سارة.

لِمَ اختارها هي إذًا دون سواها من الشّابات، وهو لم يرَ وجهها منذ أن وطأت عتبة المراهقة؟!

احتمالات كثيرة تزاحمت في رأسها ولم تودِ بها إلى مخرج من هذه المتاهة.

لم تكن تُدرك أنّ حكايتها مع رشاد، الذي يكبرها بعشر سنوات، تتخطّى عمر خطوبتهما، وتعود إلى زمن بعيد، إلى ذلك اليوم الذي أصيبت فيه بطلق ناريّ، وهوت فوق ذراعيْه تتوسّل الحياة بأنفاس يخنقها الألم والخوف معًا.

كان يومها عرس إحدى قريباتها. وسارة التي لم تتجاوز سنواتها التّسع، كانت تحاول أن تُنقذ نفسها من زحمة المدعوّين وتجد لها

مكانًا يُتيح لها رؤية العروس بثوبها الأبيض وزينتها الأخّاذة وهي تعتلي المنبر المكلّل بالأزهار والغار. فلم يكن أمامها سوى تسلُّق نافذة القاعة من الخارج، لتعلو بقامتها القصيرة فوق المدعوّين المتراصّين في الدّاخل، فتواجه العروس وأجساد العذارى المتناغمة مع الموسيقى الصّادحة وسط حلبة الرقص.

في تلك الأثناء، أقبل أهل العريس بالزّغاريد والحداء، يحملون عريسهم على الأكتاف، ويطلقون النّار في الفضاء ابتهاجًا، فتاهت رصاصة عمياء واخترقت جسد سارة الرّقيق...

شهقت الصّغيرة، وشُلّت يداها المتمسّكتان بحديد النّافذة، وهوت كورقة ذابلة عصفت بها ريح الموت مُلقية بجسدها المتلاشي فوق ذراعيْ رشاد.

تزاحم النّاس وتحلّقوا حولها، بعد أن ألقى بها رشاد على الأرض وهو ينظر في عينيها الخائفتين وفي شفتيْها اللتين تتمتمان دون توقّف: "ماما".

ووسط غوغاء الرّجال، وولولة النّساء، وصراخ الأطفال، تناهى إلى مسامعه صوت امرأة تقول: "مسكينة هذه الصّغيرة، ستموت ميتة أمّها". فخلع سترته على الفور وسدّ بها الفتحة النّازفة في كتفها، وهرع تلحق به مجموعة من الشّبان، إلى أقرب سيّارة في المكان، ليطيروا بها إلى المستشفى الوحيد في المنطقة الذي يبعد مسافة عشرين دقيقة عن القرية.

وهناك، أمدّها رشاد وبعض رفقائه بالدّم، وصار يعودها كالآخرين، في المستشفى ثمّ في البيت، إلى أن تعافت.

هذا الحادث المروّع الذي ضجّت به القرية، وشاع فيها أن مجموعة من الشّبّان الغيورين أنقذوا سارة من الموت، تناسته سارة وطوته ذاكرة القرية بعد مضي سنوات عليه، إلا أنّ رشاد لم ينسه، ولم يستطع أن يمحو من باله وجه سارة الملائكيّ المُلقى فوق ذراعه، ونظراتها الحائرة الخائفة، ويدها الصّغيرة الممسكة بإصبعه بقوّة وكأنّها تستمدّ منه الحياة.

تعلّق رشاد بها، وصار يتنظرها صباح كلّ يوم أمام منزله، ليراها وهي في طريقها إلى المدرسة برفقة عماد، ابن عمّها.

اعتاد على تلك اللحظات الصّباحيّة الغنيّة بشقاوة سارة، ورسم لحياته موعدًا يوميًّا معها؛ فلم يفوّت صباحًا دون أن يُشبع روحه برؤيتها، وهي تتجاوزه دون أن تلحظه. في حين، كان هو يلحظها، يومًا بعد يوم، تكبر وتزداد طولًا وجمالًا وسحرًا... إلى أن ولجت مرحلة النّضوج، فإذا بها تمرّ من أمامه، في ذلك الصّباح، ملتحفة بالسّواد، مُقنّعة بمنديلها الأبيض الفضفاض. ومنذ تلك اللحظة، ما عاد رأى سوى عينيْها الساحرتيْن.

لم يكن يعلم سرّ تعلّقه بها. كان يشعر كلّما رآها بأن شيئًا ما يورق في داخله، ينمو ويتفتّح... كان يشعر وكأنّ دمه الذي يسري في عروقها، جعل من جسمها امتدادًا لروحه... وهو الشّيخ المتديّن الذي لا خبرة لديه بارتياد بلاد العشق، وجد نفسه يقف بجرأة أمام أمّه ويقول لها: "هذه البنت لي".

بلغت سارة مدخل ساحة القرية وانعطفت باتّجاه بيت رشاد الذي يعتلي الساحة ويطل من فوقها بقناطر تُزيّن واجهته العريضة. وقبل أن

تصعد الدّرج المؤدّي إلى مدخله الواسع، بلغ أذنيْها صوت مُحرّك شاحنة رشاد. حثّت خطاها باتّجاه الباحة الخلفيّة للمنزل لتستوقفه قبل أن ينطلق، ككلّ صباح، إلى معمل الحجارة.

وصلت... الدّخان يتصاعد من خلف الشّاحنة وكانّها تتأهّب للانطلاق.

نادته بأعلى صوتها مرارًا، لكنّ هدير المُحرّك ابتلع صوتها الجريء.

ركضت كالمجنونة باتّجاه الشّاحنة. وما إن بلغتها، حتّى ألقت بكفّها فوق الزّجاج المحاذي لرشاد، تخبطه خبطات متلاحقة.

التفت رشاد، فإذا به أمام عينيها السّابح ازرقاقهما في بريق أخّاذ، والغارقة نظراتهما في حيرة وتوهان لم يعرف يومًا قرارهما.

اعترته دهشة كبيرة...

فما اعتاد منها يومًا مبادرة في لقاء!

فتح باب الشّاحنة وترجّل منها وهو يسألها باستغراب:

- ما بكِ سارة؟!

بادرته على الفور:

- أتحبّني؟

لم يُصدّق ما سمعه!

أطفأ محرّك الشّاحنة وطلب منها بشغف:

- كرّري ما قلتِ، سارة.

- أتحبّني رشاد؟

وقف مأخوذًا بسؤالها... لم يعد يدرك إن كان في غيبوبة، أم أنّه

في رحلة حلم من أحلامه السّريّة معها!

وهل تصدُق الأحلام؟!

كم مرّة رسم، في أحلامه، هذا السّؤال فوق شفتيْها اللتين لم يعد يعرف لهما شكلًا ولا لونًا... وكم مرّة أجابها بقصائد وَلَهٍ، يُغافل بها ثوبه وأصول الدّين التي تربّى عليها!

كانت تقف أمامه بانتظار جواب على سؤال جعله يتوه في احتمال رائع؛ احتمال كان قبل تلك اللحظة يُرادف المستحيل: إنّها تحبّه!...

هكذا ظنّ... وإلا، لِمَ انسلّت في هذا الوقت من بيتها لتطرح عليه هذا السؤال؟

سرت قشعريرة العشق في أوصاله، وراح يناجي نفسه:

ما سرّ هذا الصباح الذي تعطّر بحضورها وأذاب جبال الجليد القابعة في قلبها، وجعلها تمثل بين يديّ طالبة كلمة حبّ؟

ما سّر هذا الصّباح الذي حملها إليّ، بعد سنواتٍ من القحل، لتُغرقني بكلمة واحدة؟!

أعاده صوتها مردّدًا:

- أجبني رشاد، أتحبّني؟

تلعثم وهو يجيب:

- وتسألين سارة؟!

- أريد أن أسمعها منك. قل لي إنّك تحبّني.

كاد يصرخ ليملأ المكان بقوله: "أحبّك سارة". لكنّه ابتلع انفعاله وقال:

- أنتِ كلّ ما دوّنته من ذكريات، وكلّ ما رسمته من أحلام.

- أثبت لي ذلك.

- عندما نتزوّج سأغرقكِ حبًّا و...

قاطعته باستياء:

- افعل شيئًا لي أنا، لي أنا، لا لنفسك.

- اطلبي سارة، اطلبي أي شيء يُثبتُ لكِ أنّني أحبّكِ.

- أريد أن أنتسب إلى الجامعة. إذا وافقت أنت، لن يُعارض عمّي.

طلبها نزل كالصّاعقة عليه... فأجابها مُتذمّرًا:

- أنهكتني سارة بطلباتكِ التي تُطيل انتظاري لكِ.

اتّكأ إلى الشّاحنة وقد انتابه شعور بالهزيمة، ثمّ أضاف بانكسارٍ:

- انتظاري لكِ كلّ تلك السنوات ألا يُثبت مدى ولعي بكِ؟! انتظرتكِ حتّى مللتُ الانتظار... فكلّما اقترب موعد الزّفاف تُبعدينه بمشاريعكِ التي لا تنتهي؛ أوّلها حجّتكِ بإنهاء دراستكِ الثّانويّة، وثانيها بيت أحلامكِ بعيدًا عن أمّي وأبي، والآن، عندما أوشك بيتنا أن يُصبح جاهزًا، ابتكرتِ مشروع الجامعة.

صمت للحظات بينما هي توري نظراتها عنه، ثمّ سألها بخيبة:

- تودّين ان أنتظركِ أربع سنوات أخرى؟ أهنّئكِ سارة لأنّك تنجحين في إقصاء نفسك عنّي!

- أقنع عمّي بانتسابي إلى الجامعة ولن أجعلك تنتظر. سأتابع

دراستي بعد زواجنا.

ثمّ أضافت بصوت ملؤه الشّجن:

- لا تحرمني من السّعادة، رشاد.

وكيف يسمح لها بالانتساب إلى الجامعة؟

كيف يفتح لها بيديه بابًا لدربٍ طويلٍ يُقصيها عنه أكثر وأكثر؟

كيف يُطلقها إلى عالم رحبٍ، يتّسع ويتّسع ليُحجّمه أمامها؟

طريق الجامعة بعيدة جدًّا عن طريق معمل الحجارة؛ طريقان لا يلتقيان إلا عند نقطة واحدة: نقطة الاختلاف.

ربّاه أيسرّ لها بكلّ ما يُعذّبه؟

أيبوح لها بكلّ ما يُخجله؟

أيقول لها إنّ هذا الكتاب الذي أحبّته هي، فرفعها إلى مرتبة "متعلّمة"، كرهه هو فرماه في خانة "أمّيّ"؟

لا... بالطّبع لا... لن يسلّمها الدّرع الذي يُحصّنها ضدّه. لذا أجابها على الفور:

- عمّكِ لن يوافق. وإن فاتحته بالموضوع سيُبعدكِ عنّي حتمًا... وأنا لا أريد خسارتكِ سارة.

نظرت إليه نظرة ثاقبة حادّة، وقالت له بإصرار:

- عليك الموافقة رشاد، وإقناع عمّي، وإلا ستخسرني فعلًا.

- أتهدّدينني سارة؟! كم أنا غبيّ! ظننتكِ آتية لتبوحي لي بحبّكِ... لتعتذري عمّا سببته لي من عذاب... لتأسفي على الأيّام التي أضعناها بالانتظار...

ثمّ أضاف بتحدٍّ:

- لن أخسركِ سارة، لأنّكِ مُلكي، ملكي أنا، ولن تكوني لغيري أبدًا.

- لا يُمكنك امتلاكي رشاد، ما لم تمتلك مشاعري.

- مشاعركِ لا تهمّني. أنتِ قدري... أنتِ لي منذ أصابتكِ تلك الرّصاصة ورمتكِ بين ذراعيّ.

- إنقاذك لي من الموت لا يُعطيك الحق بمحو أحلامي ورميي في سجنك المؤبّد.

قالت ذلك وهمّت بالرّحيل.

أوقفها رشاد بإحكام قبضته حول ذراعها، صارخًا في وجهها:

- ماذا تقصدين سارة؟

حرّرت ذراعها منه بالقوّة وهي تُحذّره بالنّبرة نفسها:

- لا يحقّ لك لمسي، رشاد.

- أنتِ زوجتي شرعًا؛ كتابنا مكتوب منذ أربع سنوات. هل نسيت ذلك؟

- إنّه مُجرّد حبر على ورق، ولا يعنيني أبدًا.

- هذا الحبر الذي لا يعنيكِ يجعل منكِ "حلالي"، سارة.

- لن أكون حلالك إلا عندما يزفّني النّاس إليك، ويعلنونني للملأ زوجة لك.

وأضافت وهي تبتسم باستهزاء:

- وهذا لن يحصل ولا في أحلامك، إن لم توافق على دخولي الجامعة.

وانصرفت...

مشت وقدماها تلتهمان طريق العودة بخطًى عجلى، غير آبهة بما خلّفته من دمار في قلب عاشق، وفي أحلامه التي بناها لحظة بلحظة على مدار سنوات.

مشت وهي تستر فرحة الاحتفاء بخطوتها الأولى على درب الحريّة المنشودة.

مشت وكلّها اعتزاز بنفسها التي استطاعت أن تواجه وترفض بعد طول انكسار.

مشت وكلّها عزيمة وتصميم على تخطّي كلّ المطبّات المزروعة على دروب أحلامها.

مشت وهي تُعيد وتُكرّر في داخلها: "سأدرس، وأرسم، وأنجح، وأحقّق ذاتي... وسأقول للجميع: هذه أنا".

* * *

إذا كان الحبّ، كما يُقال، هو العلاج الوحيد من اليأس، فما هو العلاج النّاجع لهذا اليائس من حبّه، بعد لقاء صباحيّ مُقلق، جعله يمضي إلى معمل الحجارة وهو يجرّ أذيال الحسرة والخيبة من علاقة طال مرضها لستّ سنوات، ويراها اليوم، بعد حواره مع سارة، تزفر أنفاسها الأخيرة؟

بعد نهار مسكون بالقلق والاضطراب، عاد رشاد من عمله مرتبكًا حائرًا...

دخل غرفته، موطن أحلامه مع سارة، علّه يجد حلًّا سحريًّا يشدّ به وثاق خطوبتهما.

ألقى بروحه وجسده المُنهكيْن فوق السرير، وهو يحاول أن يُخرس صوت سارة الذي يصرخ في أذنيْه مردّدًا: "لا يمكنك امتلاكي ما لم تمتلك مشاعري".

ماذا يفعل؟...

هل يستسلم لرفضها له ويحلّ رباط الخطوبة؟

وإن فعل ذلك، كيف ستسير حياته دون طيفها الذي يغزل به أحلام لياليه، ويرسم معه آماله المستقبليّة؟

والبيت الذي بناه، لمن سيكون من بعدها؟ لامرأة أخرى؟ مستحيل... فما من امرأة تمحو سارة من قلبه إلا إذا أمر الله بمعجزة. وإن حصلت المعجزة واقترن بسواها، فإنّ جدران بيته التي بُنيت لَبِنة لَبِنة على آمال وأحلام ترتسم فيها سارة دون غيرها من نساء العالم، سترفض أن تتآلف أو تتجانس مع غيرها من نساء العالم.

غمر وجهه بكفّيْه متأوّهًا: "أي عذاب هذا يا ربِّ؟ إذا خضعتُ لطلبها خسرتها، وإذا رفضتُ طلبها خسرتها! ساعدني ربِّ كي أجد حلًا يُبقي هذه الفتاة لي".

صحيح أن الحبّ الهادر كالنّهر الدّافق يجرف كل ما يعترض مجراه، وإن تعثّر بما يصعب تجاوزه، حوّل مساره وصولًا إلى مُناه. وهكذا، وجد حبّ رشاد الهادر الدّافق، مسارًا آخر مُحاذيًا لعناد سارة.

فبعد ليلة ظلماء، لم تعرف جفون رشاد فيها الغمض، لاحت له مع الفجر خاطرة لم تكن في الحسبان؛ سيسجّل سارة في الجامعة سرًّا عن عمّها، الأمر الذي يمنعها من أن تحضر وتدرس وتُمتحن،

إلا إذا تزوّجته. وهو قادر على إنجاز البيت، بما يتّفق، خلال شهرين. وبعد الزّواج والحمل والإنجاب سيستحيل عليها متابعة تحصيلها الجامعيّ. وهكذا، تكون الظروف، لا هو، من أبعدها عن الجامعة.

انتشى رشاد غبطة وهو يؤكّد لنفسه أنّ سارة ستوافق على عرضه هذا؛ ففي الوقت الذي تظنّ فيه أنّها تُحقّق أحلامها، ستقدّم له بكلّ بساطة، أمنية العمر وجلّ ما يصبو إليه.

سرت سكينة في أعصابه...

أخيرًا سيقبض على أحلامه بعد طول انتظار...

أخيرًا سينتهي عذابه من شوقه إليها وولهه بها...

أخيرًا سينتهي خوفه من فقدانها؛ خوف يقلقه ويؤرقه ويصوّر له فراقًا حتميًّا لحب العمر...

كم جاهد للاحتفاظ بها طوال سنوات جفائها له!

دغدغه هذا الأمل وسكّن اضطرابه، فأسدل جفنيْه وغطّ في نوم هادئ، لم يستيقظ منه إلا بعد أن اكتست الطّبيعة بثوب النّهار.

غادر رشاد فراشه، وارتدى ثيابه، وأعتمر القلنسوة، وبات في جهوزيّة تامّة لمقابلة سارة وإنبائها بتلك الفكرة الماكرة التي توهمها بأنّها مفتاح الحلم والسّعادة، في حين أنّها ستكون العلاج النّاجع الذي يبلسم آلام رشاد ويحقّق له آماله.

لكنّ سارة كانت قد سبقت إطلالة الفجر وجهّزت كل ما يلزمها للرّحيل: كيس صغير دسّت فيه ثياب أمّها الرقيقة، ثيابها الدّاخليّة، سواراً من الذّهب ورثته عن أمها، ظرفًا فيه شهادتها الثّانويّة،

ومحفظة فيها هويّتها، صور شمسيّة، رقم هاتف قريبهم يوسف، وكلّ ما تملكه من نقود.

خرجت سارة من غرفتها لتستكشف طريق هروبها من البيت، ففاجأها عمها بجلوسه، على غير عادته، على المصطبة أمام المدخل.

قفلت عائدة إلى الغرفة وقلبها يكاد يشقّ صدرها من شدّة الخوف.

أخفت الكيس خلف السّرير، وانتظرت حتّى سكن خوفها لتعاود الخروج.

سترت يديْها المرتجفتيْن بمنديلها وتوّجهت إلى عمّها وهي تستجدي الله أن يمنحها بعض الصّلابة.

رمت عليه الصّباح، وسألته بصوت خافت كي لا يفضحها اضطرابها:

– عمّي، ألا زلت هنا؟ ليس من عادتك أن تتأخّر في الذّهاب إلى الكروم.

– لن أذهب اليوم. معدتي تؤلمني.

كتمت سارة استياءها واضطرابها، وقالت مصطنعة القلق:

– سلامتك عمّي. إنّه البرد. من الأفضل لك أن تستلقي في سريرك... هيّا أُدخل إلى غرفتك وسأحضر لك فنجانًا من اليانسون ليطرد البرد من جسدك.

– لا تتعبي نفسك، لقد تناولت فنجانًا من القَصْعين. سأطيب بعد قليل.

– ادخل إلى فراشك إذًا.

- لا، أنا مرتاح هنا.

مضغت غضبها بصعوبة وهي تفكّر في فشل خطّتها بعد أن علّقت على مشاجبها كلّ الأحلام.

استدارت عائدة إلى غرفتها مثقلة بالخيبة... إلا أنّ عمّها التفت إليها وسألها باستغراب:

- لماذا ارتديتِ ثيابك باكرًا؟

عصف بها الخوف... ارتبكت وتاهت أفكارها للحظات باحثةً عن كذبة تُنجدها من هذا الموقف. فوجدت نفسها تقول:

- ألا تعلم؟! حماتي ستزورنا.

- في هذا الوقت المبكر؟!

رسمت على شفتيها ابتسامة باهتة لتموّه اضطرابها، ثمّ قالت مصطنعة اللّامبالاة:

- صبحيّة نسوان.

- أحضري لي عباءتي، لا يجوز ان أستقبلها هكذا.

أسرعت إلى الدّاخل بخطوات مُتعثّرة، وأحضرت له العباءة. ساعدته في ارتدائها وهي تقول:

- أنا في غرفتي. إذا احتجت شيئًا نادني، ولا توقظ العجوزين فهما تعشقان النّوم.

أومأ برأسه بالإيجاب، ولفّ عباءته حول جسده الضّخم، ثمّ عاد إلى مقعده موليًا ظهره للبيت.

دخلت سارة غرفتها وارتمت فوق السرير بعد أن خارت قواها من الخوف والاضطراب واليأس.

آلاف الأسئلة احتشدت في رأسها ورمتها في حيرة وإرباك...

كيف ستتفلّت من سجّانها الذي يسدّ بجسده وأفكاره منفذ حرّيتها؟

هل تبحث عن معبر آخر يقلّها إلى ما تنشده من الأماني والأحلام؟

وماذا لو كشفها عمّها وهي تنسلّ هاربة من عقالها؟ فهل ستكون بعدها قادرة على تحمّل حكمه الجائر؟

وهل تؤجّل فرارها للغد؟ وكيف يمكنها أن تنتظر للغد بعد أن وعدت نفسها بفكّ إسارها اليوم، والانعتاق من المكان الذي أطبق على روحها حتّى الخناق؟

ومن يضمن لها كيف سيكون الغد، وما يمكن أن يحصل معها قبل أن يحين؟ فقد يأتي رشاد ويسرّ إلى عمّها بما حدث بينهما بالأمس، وتنحجب عنها كل آمالها...

وبينما هي غارقة في هذا الصّراع بين الخوف من الهروب والرّغبة فيه، تنبّهت إلى أنّ فشل هروبها كما الانتظار إلى أن يأتي رشاد ويبوح لعمّها بما قالته، لأنّ نتيجتهما واحدة، ألا وهي الوأد في مقبرة الزواج، وبأسرع وقت ممكن.

ولأنّ للإصرار صوتًا صارخًا لا يُكتم وطاقة هادرة لا تُخمد، أصرّت سارة على المغامرة...

تشبّثت بأحلامها، ونهضت بعزم يطمس كل الخوف. وضعت في الكيس حذاء من غير كعب... فتحت الباب بتأنٍّ... وسارت حافية القدمين، بخطواتٍ بطيئة مثقلة بالرّعب، وهي تجتاز الممرّ الطّويل المفضي إلى الخارج.

ها هو عمّها أمامها...

التفاتة واحدة منه إلى الخلف وتُغتال كلّ أحلامها...

تعرّق جسدها المرتعد تحت ثوبها الطويل، وتصلّبت ساقاها، وغارت أنفاسها حتّى كاد يُغشى عليها...

وفيما هي تقف هكذا، مسلوبة من ذاتها، تنحنح أبو محمود وانتصب عن مقعده...

أصلح عباءته فوق كتفيْه... وقبل أن يلتفت ويحرمها من امتصاص نسغ الحريّة، انعطفت باتّجاه المطبخ، وبخفّة لم تعهدها في نفسها، تسلّقت درجات السّلّم نحو السّقيفة. ومن فتحة صغيرة في سقفها، صعدت إلى السطح متوجّهة إلى الجهّة الشّرقيّة منه حيث لا يتجاوز الارتفاع أكثر من متر واحد عن الحقل المحيط بالمنزل.

انتعلت الحذاء، ورمت بالكيس إلى الجلّ، ثم قفزت وراءه محقّقة الخطوة الأصعب في مشوارها.

ربطت منديلها حول عنقها وراحت تعدو مكشوفة الوجه والرّأس صعودًا، في مسلك ترابيّ مُعشب، يتحايل على الجلالي المرصوفة بإتقان، فينحرف تارة إلى الشّمال، وطورًا إلى اليمين، يتوغّل بين الأشجار حينًا ويتعرّى منها أحيانًا، فتبدو سارة فوقه تسابق إيقاع الوقت بخطوات تبتلع المسافات، وهي تتعثّر بأذيال ثوبها وبالحجارة الناتئة هنا وهناك، فتهوي قامتها حتّى تكاد تلامس التّراب، ثمّ تعود فتستوي من جديد لتتابع الجري نحو خلاص تبغيه.

كانت تركض مُثقلة بالأسى ممّا مضى، وبالقلق من الآتي...

كانت تركض مُجتازة تلك المساحة الضّبابيّة بين عدوٍّ خلفها

ومجهول أمامها، بجعبة فارغة إلا من قبضة أحلام.

كانت تركض، رغم كلّ الخوف من الغد، بإصرار وتصميم، مستهدية بأحلامها الواعدة.

وقبل أن تُحاذي أول البيوت المتناثرة على أطراف ساحة القرية، توقّفت رأفة بأنفاسها المتعبة، وأسندت جسدها المُنهك إلى جذع شجرة زيتون مُعمّرة.

التفتت إلى الوراء... كان لا بد لها من نظرة وداع...

صحيح أنّ للرحيل أذيالاً من الخيبة! فالبيت الذي حضن عمرًا من عمرها، سيغدو بعد هذه اللحظة غمزة من الماضي...

شريط من الصّور عَبَرَ ذاكرتها، فانقشع طيف أمّها المعشّش في زوايا الدّار، ووجه عمّتها التي كانت على الدوام الحضن الّذي تغترف منه الحنان. وراحت تضجّ في مسامعها قهقهة عماد المعهودة، وصدى خطواته الهاربة من شيطنتها...

الوداع ما أصعبه!

ما ظنّنته موجعا إلى هذا الحدّ!

لملمت دموعا لم يستحضرها الرحيل فقط، بل استدعاها شوق آتٍ إلى المكان الذي ألفتها فيه الحياة عشرين عامًا.

رغم كل بصمات الألم التي أودعها هذا المكان في روحها، ستشتاق إليه...

أيقظتها من غفلتها هذه، خيوط الشمس التي راحت تلوص من خلف الجبال المقابلة لتلثم الأرض بأشّعة برّاقة تتكسّر فوق الأعشاب وأوراق الزيتون...

إنّه الشّروق الذي يُنذر بتوقّف السير باتّجاه بيروت.

انتابها القلق. لفّت المنديل حول رأسها، ولثّمت به فمها، ثم أصلحت هندامها، ومسحت بمحرمة الغبار عن حذائها، ثمّ انطلقت إلى الطّريق العام الذي يبعد خطوات عن يمينها، لتستقلّ أوّل سيّارة عابرة نحو العاصمة.

مشت بخطوات ثابتة، تدفعها إرادة قويّة، وتصميم يُحفّزها على المضي إلى الأمام دون أن تخشى أشواك السّبيل التي ستعترض طريق أحلامها.

لحظات وكانت تقف على رصيف الطّريق العام الذي يشطر القرية ويتجاوز بَعْدها العديد من القرى ليصبّ في "ستّ الدنيا": بيروت.

حبل السّيّارات المتواصل، الذي يدلف نحو بيروت كل فجر، انقطع مع إطلالة شمس ذلك اليوم...

وقفت سارة على الطّريق المقفر حائرةً، خائفةً، مشوّشة الفكر، مرتعدة الأوصال...

ماذا ستفعل لو لم تمرّ سيّارة وتقلّها قبل أن يلمحها عابر من أهل القرية، أو أحد الصّيادين المنتشرين عند أطراف الحرج؟!

لفّها الضّياع وهي تقف عند حدود المجهول، مسمّرة في مكان لا عودة منه إلى الوراء.

وبينما كانت تنتظر على عتبة الفشل مستنجدة بالله لينتشلها من هذا الضّيق، وإذا بسيّارة سوداء تُطلّ من خلف المنعطف.

صحيح أنّ من يملك الحلم تُعبّد له مسالك الحياة!

خطت سارة إلى الأمام وهي تلوّح بيدها بإلحاح، متوسّلة بصوت خافت مخنوق: "قف أرجوك...".

تجاوزتها السّيّارة بسرعة، فتجاوزت العَبرات عينيْها المتوسّلتيْن. وما كادت تطأطئ رأسها خيبة، حتّى توقّفت السّيّارة على يمين الطريق وترجّل منها السّائق الشّاب وهو يسألها بلهفة:

- هل أساعدكِ بشيء، شيخة؟

ركضت سارة باتّجاهه... فتحت باب السيّارة الخلفيّ على عجل، وهي تقول بصوت مضطّرب:

- خذني من هنا بسرعة.

ثمّ رمت بنفسها على المقعد وأغلقت الباب حاسمة أي مجال للرّفض أو التّعذّر أو الاعتذار.

صعد السائق إلى السيارة، ثمّ التفت إليها قائلًا بانزعاج:

- لست سائق تاكسي سيّدتي!

أجابته برجاء وإلحاح:

- أعلم، أعلم، ولكنّ الأمر في غاية الضّرورة، أرجوك...

ثمّ أضافت وهي تجول بنظرها الطّريق والكروم المحيطة بالسيّارة، بتوجّس:

- بالله عليك، انطلق.

وقبل أن يدير محرّك السيّارة، التفت إلى المرآة، وجدها تلملم دموعها بطرف منديلها، فقال لها بلهجة صارمة:

- شيخة، أنا بصراحة لا أريد الدّخول في مشاكل... إذا كنتِ هاربة أو...

قاطعته مؤكّدة:

- لا، لا أبدًا. ولِمَ تعتقد ذلك؟ إنّ عمّي مريض جدًّا وهو في أمسّ الحاجة إليّ. لقد هاتفني للتو.

ثمّ رفعت الكيس وأضافت:

- يجب أن أوصل له هذه الأغراض.

وبعد تردّد، انطلق...

- إلى أين تتّجهين؟ أنا ذاهب إلى بيروت.

تنفّست الصّعداء وهي تُجيب:

- الحمد لله. أنا أيضًا أقصد بيروت.

وقبل أن تُكمل كلامها، دخلت السّيارة ساحة القرية. طرحت سارة جسدها فوق المقعد خوفًا من أن يلحظها أحد، وراحت ترجوه:

- اجتز القرية بسرعة، أرجوك. لا يجوز أن يراني أحد برفقتك؛ ثوبي لا يسمح لي بالإنفراد مع رجل.

غزاه شعور قويّ بأنّه يشارك في جريمة ما. لكن، كان لا بد له في تلك اللحظة إلا أن يشبع سيّارته وقودًا ليحثّها على السّرعة.

لحظات معدودة وكانت السيّارة قد أصبحت خارج القرية.

رفع نظره إلى المرآة وقال بلهجة مطمئنة:

- بإمكانكِ أن تجلسي شيخة. تجاوزنا القرية.

انبسطت أساريرها وهي تلتفت إلى الوراء...

القرية تبتعد وتبتعد وتبتعد لتغدو نقطة صغيرة أمام ناظريْها...

لطالما كانت القرية، بساحتها الواسعة وأحراجها الشّاسعة،

ترميها في زاوية ضيّقة وضيّقة جدًّا، لا تتسع لما تصبو إليه من أحلام.

لطالما كانت تلك القرية، بكل ما تزهو به من ألوان، كناية عن منزل ضرير، ينظر إليها بعينين مطفأتيْن لا تلحظان فيها سوى ظلام في ظلام.

لطالما كانت تلك القرية بأهلها وناسها، الذين يعدّون بالآلاف، تتشكّل في شخص عمّها الظّالم بإيمانه، والحاكم بسلطته رغم سجوده لله.

وغارت القرية خلف الآكام.

ها هي سارة تقطع حبل الماضي بلا ندم، بلا خوف من غدٍ يكتنفه الضّباب.

هي تعلم أن رحيلها مصيبة ستحلّ في بيت عمّها، الشّيخ الجليل. ورغم ذلك اعتراها شعور بالرّاحة. ففتحت زجاج السّيارة، وجلست وسط المقعد تتأمّل الطّريق أمامها وهي تضيق وتتّسع، تلتوي وتستقيم، تنعطف وتنفرج، وتُجبر السيّارة على الامتثال لها وإلا سقطت في الهاوية.

غريبة هي الطّرقات كم تحاكي الحياة؛ فهي مليئة بالمطبّات، كثيرة المنعطفات، تضيق بالإنسان أحيانا إلى حدّ الخناق، وتتسع أمامه أحيانًا أخرى لتمنّ عليه بالرّاحة والهناء، وهو في كل الحالات مجبر على سلوكها كما هو مُجبر أن يحيا وفق هذه الحياة!

كان الصّمت مطبقًا على السيّارة، وسؤال رهيب يضجُّ في داخلها: ماذا لو رفض قريبها يوسف استضافتها ريثما تتدبّر أمورها في بيروت، خوفًا من إغضاب عمّها أبي محمود؟

وفيما كانت الأفكار تتقاذفها، علا صوت السّائق يقول:

- اسمي سيزار.

انتظر منها أن تعرّف باسمها، لكنّها احتفظت بالصّمت، فأردف قائلًا:

- حسنًا سأناديكِ بـ"شيخة".

ثم تابع يقول بعفويّة:

- أنا من قرية "عين العريش" المحاذية لقريتكم. أمضيتُ معظم حياتي في أستراليا مع عائلتي التي قرّرت أخيرًا العودة لتستقرّ في الوطن بعد عمر طويل في الغربة... أمّي كانت ترفض دائمًا الرّجوع إلى لبنان... على فكرة، هي لا تحبّ قريتكم رغم أنّها سكنت فيها فترة من الزّمن، تعرّفت خلالها إلى أبي وحصل النّصيب... تقول إنّ لها فيها ذكرى أليمة أصابتها بجرح لا يلتئم.

توقّع أن يسمع منها تعليقًا ولو بكلمة، لكن انشاغلها بما سيحدث معها في بيروت أفقدها الرغبة في الكلام.

وليكسر صمتها، سألها:

- تبدين صغيرة في العمر. هل أنهيتِ المدرسة؟

أومات برأسها بالإيجاب. فبادرها بسؤال آخر:

- أتدرسين في الجامعة؟

كلمة "الجامعة" نجحت في إخراجها عن صمتها، فأجابت:

- سألتحق بها هذا العام، إن شاء الله.

- وبأي جامعة؟

- اللّبنانيّة.

- أه... الدّخول إلى الجامعة اللّبنانيّة معجزة في بعض الكليّات! بأي كليّة ستلتحقين؟

- الفنون.

جوابها صعقه... فتاة ترتدي زي الدّين ستدخل كليّة الفنون الجميلة!

لاحظت سارة الدّهشة التي تتطاير من عينيْه المُنصبّتيْن في المرآة باتّجاهها. فأضافت بهدوء:

- سأدرس فنّ الرّسم.

- لا أوافقكِ في اختيارك.

- لِمَ؟!

- لأنّ ريشتكِ ستظلّ أسيرة ثوبكِ. وهذا ما سيعيق نجاحكِ.

لاذت بالصّمت. فاستدرك قائلًا:

- لم أقصد إزعاجكِ بكلامي...

- لا بأس. لم أنزعج.

- أنا درست إدارة الأعمال هنا، في لبنان. أصرّيت على ترك أستراليا منذ خمس سنوات، وأقمت مع جدّي الأرمل في شقّتنا في بيروت.

ابتسم وهو يعقّب على كلامه:

- هذا العجوز يُخضعني لمزاجيّته دائمًا. فقد قرّر بالأمس أن يودّع الصّيف في "عين العريش"، وهذا ما جعلني أمضي ليلتي في الجبل لأقلّكِ معي هذا الصّباح... لا بدّ لي من العودة إلى بيروت؛ فالبيت بحاجة لإعادة تأهيل قبل أن يصل أهلي من أستراليا.

وميض من الحنين لمع في عينيْه وهو يقول:

- أيّام معدودة وتعود حياتي إلى سابق عهدها؛ في كنف عائلتي، مع أمّي وأبي وأختي الشقيّة. كم اشتقتُ إليهم!

- عسى أن يصلوا بخير وسلامة. متى أنهيت دراستك الجامعيّة؟

- في العام الفائت. وفور تخرّجي، فتحت فرعًا لشركة أبي... صحيح أنني بتّ رجل أعمال، إلا أنني أهوى كتابة الشعر منذ صغري... أمّي كانت خائفة من أن ننسى لغتنا في الغربة، فكانت تشتري لي كتب القراءة وتدرّبني على قراءة نصوصها، وأجبرتني على قراءة مئات القصص، وهذا ما نمّى موهبتي وجعلني أعشق اللّغة العربيّة. لذا سألتحق هذا العام بكليّة الآداب في الجامعة اللبنانيّة لأنّها تفسح مجالًا للانتساب، ممّا يُتيح لي الدّراسة إلى جانب متابعة أعمالي في الشّركة.

ضحكت سارة عاليًا وقالت باستغراب وعفوية:

- غير معقول!

- وما الغريب في الأمر؟!

- الغريب أن الحياة تقذف دائمًا في دربي أشخاصًا على علاقة وثيقة باللغة العربيّة!

- حقًّا! وهل أسمعك أحدهم ممّا كتب؟

- أجل.

- بإمكانكِ أن تقيّمي إذاً ما أكتبه. اسمعي...

وبينما كانت سارة مأخوذة بكلام سيزار وشاعريّته المرهفة، كان خطيبها رشاد يقرع باب منزل عمّها الشيخ أبي محمود، وكلّه أمل

أن تنطلي حيلته على سارة فيفوز هو بها، وتخسر هي الجامعة.

فتحت له أم محمود الباب مرحّبة، وقادته إلى غرفة الجلوس حيث يتربّع أبو محمود على الأرض مستسلمًا ليد أخته زاهية وهي تمرّر الموس على رأسه بحذر، لتحلق ما نبت فيه من شعر.

حيّاهما رشاد وانحنى مقبّلًا يد أبي محمود، ثمّ تنحّى جانبًا. وبين السّلام والكلام، كان رشاد يلتفت باتّجاه باب الغرفة بعينيْن تبرقان أملًا، متوقّعًا أن تطلّ منه سارة. وعندما طال انتظاره، سأل بحياء:

- سارة نائمة؟! أريد محادثتها في أمر هامّ.

أجابه أبو محمود:

- استيقظت منذ الفجر... كانت تنتظر أمّك.

- أمّي؟!

- رفعت زاهية يدها عن رأس أبي محمود وهي تقول باستغراب شديد:

- لا علم لي أنّ أمّ رشاد تنوي زيارتنا!

بهت وجه أبي محمود، وكأنّه استشعر حدوث أمر غير مستحبّ. فأوعز إلى أخته على الفور:

- ناديها يا زاهية.

وضعت زاهية الموس في وعاء صغير قربها، وتوجّهت إلى غرفة سارة.

فتحت الباب...

ما من أحد في الغرفة!

لفتها باب الخزانة المفتوح نصف فتحة. تكدّرت زاهية؛ فباب الخزانة المنسيّ مفتوحًا نذير شؤم عندهم. لذا، أسرعت لتقفله. إلا أنّها لمحت بداخله العلبة الخشبيّة المفتوحة تعلو الثياب المطويّة.

توجّست زاهية من الأمر، ففتحت باب الخزانة بيد مُرتجفة... عرفت عندها أن كارثة حصلت، ولا شكّ في ذلك.

كانت تُريد دليلًا قاطعًا على ما تفكّر فيه. جالت الغرفة بنظرات مضطربة، فلمحت على الطّاولة قرب السّرير، ورقة صغيرة مطويّة، أخذتها من فورها لتقرأ: "سأكون بخير، لا تقلقي عليّ عمّتي ولا تغضبي منّي، فلم يكن أمامي خيار آخر؛ وجودي في هذا البيت سيودي بي إلى الموت أو الجنون. سامحيني".

راحت زاهية تلطم وجهها بكفيْها، وتنوح فوق الورقة بصمت...

بأي لسان تُنبئ أخاها بهذه المصيبة؟ وماذا ستقول لرشاد الذي ينتظر أن تدخل عليه مع سارة؟ أتخرج إليهما بلوعتها وحرقتها وتجاهر بالحقيقة، وتلعنهما لأنهما السّبب في ما حصل، أم تبتلع الألم والحسرة وتخفي الخبر، ريثما يُغادر رشاد، خوفًا من الفضيحة؟

أجل، إنّها فضيحة لا تُغتفر، ولا يرحمها المجتمع، ولن ترأف بها ألسنة القرية.

لملمت زاهية دموعها وأحكمت قبضتها على الورقة وعادت إليهما وهي تمضغ وجعها وتكتم اضطرابها مصطنعة الهدوء.

وقفت عند الباب تقول بصوت متهدّج، لوّنه الحزن الثّائر في صدرها:

– ما زالت نائمة؛ فقد تناولت مسكّنات قويّة بعد الألم الفظيع

الذي عصف برأسها طوال اللّيل وحرمها النّوم.

عرف كلاهما أن ما تقوله مجرّد كذبة، لكنّهما ظنّا أن سارة ترفض مقابلة رشاد وما توقّعا قطّ أنّهما باتا ماضيًا تخطّته سارة برحيلها.

نظر أبو محمود إلى زاهية نظرة تحمل توعّدًا، بينما نهض رشاد مستأذنًا ومؤكّدًا أنه سيعود في وقت لاحق للاطمئنان عن سارة.

خرج رشاد تواكبه زاهية بقدميْن متعثّرتيْن حتّى الباب الخارجيّ. وقبل أن يتجاوز العتبة الخارجيّة للبيت، التفت إلى زاهية وقال بمسحة من الأسى:

- عمّتي قولي لسارة أنّه سيكون لها ما تُريد.

خرج رشاد يجرّ أذيال الخيبة، ودخلت زاهية مثقلة بالكارثة التي حلّت بهم، فوقفت أمام أبي محمود بجسد متهاوٍ، تنظر إليه بعينيْن فقدتا كلّ ألوان الحياة.

ماذا تقول له؟ ومن أين تبدأ؟

أتبدأ من الكارثة التي حصلت، أم من الأسباب التي أودت إليها؟

أتبدأ من سارة وفعلتها المُشينة، أم من أفعاله الظّالمة ونتيجتها؟

استغرب أبو محمود صمتها الذي طال، فصاح بها:

- هل ابتلعتِ لسانكِ؟ نادي سارة، أنا أفهم فنونها وادّعاءاتها هذه.

بقيت زاهية مُسمّرة في مكانها، فيما دموعها المُتزاحمة فوق خدّيها تنطق بحصول ما لم يكن في الحسبان.

- ما الأمر؟!

زعق في وجهها كالرّعد. فاقتربت منه مفرجة عن الورقة المطويّة في كفّها.

تناول أبو محمود الورقة... ولم يُصدّق ما قرأه!...

انتفض محاولًا الوقوف، فخذلته قدماه المتهاويتان.

كان الخبر أكبر من السّنوات السّبعين التي عجزت عن الفتك بصلابة جسده وعزيمة روحه.

عجبًا، كيف لكلمات معدودات أن تهدّ جسده القويّ، وتحني ظهره الصّلب، وتبتر لسانه الفصيح، وتُصيبه بهذا العجز القاتل؟!

التفت إلى زوجته التي تقف على هامش الموقف، جاهلة ما يدور بينهما، وقال لها بصوتٍ مخنوق:

- اتّصلي بمحمود، وليأتِ حالًا.

دقائق قليلة وكان محمود يقف حائرًا بين والده المهزوم وعمّته النّائحة كالثكلى، وأمّه التي لجم الحدث لسانها.

كان يقف باحثًا عن كلام يُرضي والده ويكفكف دموع عمّته. فقال:

- لا تجزع أبي. لن يعرف أحد بما حدث، حتّى زوجتي، إلى أن نعثر على سارة. فهي حتمًا لم تذهب بعيدًا لأنّها لم تأخذ شيئًا من ثيابها، كما أكّدت عمّتي.

- ليتها ماتت ودفنتها بهاتيْن اليديْن قبل أن تتفلّت منهما.

نظرت إليه زاهية بعينيْن دامعتيْن وقد ارتسم الانكسار على محيّاها، وهي تقول بصوتٍ باكٍ:

- لا تقل هذا الكلام القاسي يا أبا محمود، بل اطلب من الله أن

يحميها أينما كانت.

- فتاة جاحدة... أعطيتها الأمان وزوّدتها بالإيمان... ربّيتها كابنتي، واخترت لها أفضل شاب في القرية ليستّتها ويعيّشها بالنّعيم...

كم تمنّت زاهية، في تلك اللّحظة، أن تقف أمامه غير عابئة بهيبته وتصرخ في وجهه قائلة: "أنتَ قاسٍ ظالم. بترت لسانها، حرمتها كلّ المُتع وعاملتها في بيتها كلاجئة، لا بل كسجينة". لكنّها لم تجسر سوى على الولولة والقول:

- كفاك قسوة أخي، كفاك أرجوك. لقد هربت المسكينة ممن يجب أن تلوذ بهم، فإلى من تلجأ الآن؟ إلى من؟...

- وتنعتينها بالمسكينة؟ لعنها الله... لوت ظهري وأحنت رأسي، ومرّغت سمعتي في الوحل.

تدخّل محمود خوفًا من احتدام الموقف بينهما:

- الأمر لا يُحلّ بهذه الطريقة!... سأجدها وسيبقى رأسك مرفوعًا أبي.

افترشت زاهية الأرض تنوح وتنتحب وتتوسّل إلى محمود:

- جدها يا بنيّ وأعدها إلينا، وأثلج صدري؛ النّار تشتعل في قلبي وتكاد تسكته...

ضمّها محمود إلى صدره ليسند ضعفها وهوانها، ثم خرج يقتفي أثر ابنة عمّه، تاركًا خلفه أمواجًا من الحزن والغضب تتلاطم ولا تهتدي إلى شاطئ يكسر ثورتها.

جال محمود بيوت الأقارب في القرية، علّه يشتمّ خبرًا عن سارة

أو يلمح طيفًا لها، في حين كانت سارة قد بلغت عتبة بيروت.

أوقف سيزار السيّارة جانبًا والتفت إليها قائلًا:

- ها نحن في بيروت. إلى أين وجهتكِ الآن؟

تلعثمت سارة وهي تجيبه:

- في الواقع... لا أعلم. أقصد، لا أعلم في أي منطقة يقطن عمّي.

ثمّ راحت تبحث بانفعال داخل الكيس حتّى عثرت على محفظتها. فأخرجت منها قصاصة ورق، وقالت بشيء من الرّاحة:

- أملك رقم هاتفه. ليتك توصلني إلى أي مكان أستطيع أن أُجري منه مخابرة هاتفيّة.

أخرج سيزار هاتفه الخلويّ من جيبه:

- تفضّلي شيخة.

- في أي منطقة نحن الآن كي يأتي أحدهم ويأخذني؟

- سأوصلك إلى قصر الأونيسكو، فهو أقرب منطقة يعرفها الجميع، ليوافيكِ أحد إلى هناك.

تناولت الخلويّ منه بيد مضطّربة. سمّت بالله، ثمّ طلبت الرّقم.

وضعت الخلويّ على أذنها، ولكن ما من مجيب.

اعترتها فوضى عجيبة... تأكّدت من الرّقم، فهو نفسه! عاودت الاتّصال مرّة أخرى، ولكن دون جدوى.

أصابتها عاصفة من الرّفض، فراحت من دون وعي تُكرّر طلب الرّقم وهي تذرف الدّمع وتقول بحرقة:

- لا يمكنكَ أن تخذلني بهذا الشّكل... أجب أرجوك... أجب

ولا تعاقبني بهذا الشّكل...

- ما الأمر شيخة؟!

بِمَ تجيبه ورقمها الأخرس لا يُجيب؟

أتقول له إنّها باتت الآن متشرّدة، لا تملك سوى رقم ميتٍ راهنت عليه لتستمدّ منه أنفاس الحياة؟

أتقول له، هذا الرقم الذي ظنّته حليفها الوحيد في معركتها مع الأيام، يغدو الآن عدوًّا، يرفضها ويطلب منها أن تكفّ عن الإلحاح بطلبه؟

طافت عيناها بالدّمع وهما تجولان الشّارع المكتظ بالأبنية والنّاس والسيّارات، وهي في وسطه وحيدة وحيدة بين غرباء.

سكنها الرّعب... رعب سلبها كلّ ما شحنت به نفسها من دفاعات: إرادة صلبة، وباقة من الآمال والأحلام.

أين تذهب الآن بعد أن خسرت سندها الوحيد؟!

إلى من تلوذ وقد تنكّر لها ملجؤها الوحيد؟!

كانت تظنّ أن هذا الرقم يحمل لها تأشيرة دخول إلى عالم الحرية، فإذا به يُعطيها جواز ضياعها، ويرميها على دروب الغربة بلا قريب أو معين.

كم هو صعب على الإنسان أن يقف وحيدًا أعزل في مهبّ الخوف!

أيقظها، من هذا التّوهان، صوت سيزار يطلب منها أن تعطيه الخلويّ.

ناولته إيّاه وهي تمسح دموعها بطرف منديلها.

طلب سيزار الرقم مراراً، ولكن عبثاً. فقال لها مصطنعًا اللامبالاة:

- الأمر بسيط شيخة، ولا يستحقّ هدر دموعكِ.

دسّ الخلويّ في جيبه وهو يضيف:

- يبدو أن الهاتف معطّل، أو أن عمّكِ بسبب مرضه لم يدفع الفاتورة بعد.

- يعني أنّ الحالة قد تطول!

- ربّما.

- وماذا سأفعل الآن؟ ليس لي غير عمّي يوسف في بيروت!

وغصّت بدموعها من جديد، فسارع سيزار للتخفيف من هلعها:

- لا تجزعي شيخة. سنجد حلًا.

أدار سيزار محرّك السيّارة، وألف سؤال وسؤال يدور في رأسه: ماذا يفعل الآن بتلك الشّابة القابعة خلفه؟ أيتوجّه بها إلى موقف سيّارات الجبل ويعيديها إلى قريتها؟ لن توافق حتمًا، لا بل هو متأكّد أنّه لو عرض عليها الأمر، ستترك السيّارة مُفضّلة أن تبتلعها بيروت على أن تعود من حيث أتت. ليس أمامه سوى أن يصطحبها معه إلى مكتبه. ولكن ماذا لو طال وضع الهاتف لأيّام أو...؟

تأفّف سيزار وهو يلعن هذا الصّباح الذيً بلاه بهذه الشّابة. إنّه حقًّا في مأزق. فلم يعتد من الحياة أن تزجّه في مثل هذه المواقف المحرجة.

وبعد تفكير، لم يجد أمامه سوى حلّ واحد...

سألته:

- إلى أين نحن ذاهبان؟!

- أنا سأذهبُ إلى مكتبي، أمّا أنتِ...

وخانته الجرأة فابتلع الكلمات، بعد أن نظر في المرآة إلى عينيْها الممتلئتيْن بنظرات الخوف.

فألحت بالسّؤال:

- إلى أين تأخذني؟

- اسمعي شيخة. أنا لا أعرف حقيقة أمرك، لكنّني مُرتاب حول قصّتك، ومتأكّد من أنّه يستحيل عليكِ العودة إلى قريتك، كما يستحيل عليّ أن أتركك تتوهين في شوارع العاصمة وليس من مكان تلجئين إليه. كما أنّ انتظاركِ في مكتبي قد يُثير ريب الدّاخلين إليه، وهم كثر. ولا تنسي أنّه يجب أن نأخذ في الحسبان بأنّ وضع الهاتف قد يطول... لذا، ليس أمامنا سوى حلّ واحد.

- وما هو؟

أخرج سيزار من جيبه مجموعة من المفاتيح. حاول بصعوبة، وهو يقود، أن يفصل مفتاحًا واحدًا عنها. وقال:

- خذي هذا المفتاح، شيخة.

سألته وقد دثّر القلق صوتها ونظراتها:

- وما هذا المفتاح؟!

ابتلع ريقه بصعوبة محاولًا أن يستحثّ جرأته، ثمّ قال بصوت شبه مكتوم:

- إنّه مفتاح بيتي.

- هل جُننت؟! إنّه أكثر الحلول استحالة.

- أفهم أنّه من الصّعب عليكِ أن تطمئنّي إلى شخص تعرّفتِ إليه

منذ أقلّ من ساعتين. لكنّني سأكون في مكتبي طوال وجودكِ في بيتي. بإمكانكِ إقفال الباب من الدّاخل وترك المفتاح في القفل، بحيث يتعذّر على أحد فتحه من الخارج...

أضاف أمام صمتها:

- إذا كان اقتراحي لا يناسبك، ابقي في بيتي على الأقل حتّى المساء، لعلّنا في هذا الوقت نجد حلًا لوضعكِ.

تناولت سارة المفتاح بأصابع مرتجفة... وساد السكون بينهما حتّى ركن سيزار السيّارة في موقف البناية التي يقطن فيها في منطقة الحمرا.

قال:

- الشّقّة في الطّابق الخامس، إلى يمين المصعد. تريدين أن أرافقك حتّى...

قاطعته على الفور:

- لا، لا، سأصعدُ وحدي.

- حسنًا. كوني على ثقة بأنّ أحدًا لن يزعجكِ. وأرجوكِ لا تُجيبي على الهاتف...

توقّف عن الكلام كأنّه تذكّر شيئًا:

- أعطيني الورقة المكتوب عليها رقم عمّك.

تناول الورقة منها وأخرج من جعبة السيّارة قلمًا، ثمّ كتب تحت رقم عمّها، اسمه ورقم هاتفه. وقال لها:

- إذا احتجت إلى شيء اطلبيني. وكرّري محاولة الاتّصال بعمّك.

ثمّ أعاد القول بلهجة جازمة:

- ولا تجيبي على الهاتف إلا إذا طلبتك أنا، ستعرفين ذلك من خلال الرقم الذي يظهر على شاشته.

اتّجهت إلى مدخل البناية، ودخلت...

ها هو المصعد يستقبلها...

ارتبكت... فهي لم تستقلّ المصعد إلا يوم دخلت المستشفى، عندما أصيبت بطلق ناريّ. ولم تنسَ، رغم مرور كل تلك السنوات، مقدار الخوف الذي اعتراها آنذاك. لذا قرّرت أن تُعرّج عنه لتصعد الدّرج، وهي على استعداد تامّ لتحمّل مشقّة صعود خمس طبقات. إلا أنّ خجلها من سيزار الذي يلاحقها بنظراته من السيّارة، ردّها عن قرارها، ووجدت نفسها مُجبرة على دخول تلك العلبة المقفلة وتحمّل كلّ ما سينتابها من خوف وهلع.

ضغطت على الزّر، وتشبّثت بأحد جدرانه وهي تستعين بالله وتستنجد بقدراته، إلى أن توقّف بها عند الطّابق الخامس.

خرجت منه مستندة إلى الجدار المُحاذي، وقد لفّها دوار عجيب، وما إن استعادت توازنها، حتّى التفتت إلى اليمين لترى باب الشّقة الموصود بانتظارها.

مشت إليه بخطوات قلقة... فتحته ودخلت ثمّ أقفلته على الفور تاركة المفتاح داخل القفل، كما أوصاها سيزار.

مدخل الشّقّة واسع، ينفتح عليه بابان، ويتفرّع من يساره ممرّ طويل يودي إلى عدّة غرف.

أدهشها المكان! فالشّقّة تبدو كبيرة، واسعة، خلاف ما قرأته في

خواطر ساذج لخليل تقي الدين، بأن الشّقق في المدينة ضيّقة كعلب السّردين، وسقوفها واطئة كبلاط القبور.

تذكّرت كم أخافها وصفه للمدينة وسكّانها، لكنّ خوفها ذلك لم يردعها عن الإصرار على هذه المغامرة.

تقدّمت بهدوء وكأنّ قدميْها تخشيان ملامسة الأرض وخدش حرمة المكان وخصوصيّته.

دخلت من الباب العريض المقابل للمدخل لتجد نفسها في غرفة فسيحة منفرجة، لها واجهة زجاجيّة تشرف على الشّارع المكتظ بالسّيّارات، المزدحم بالبشر؛ بشر يتحرّكون على شاكلة الآلات، تقلّهم خطواتهم العجلى إلى... إلى حيث لا تدري!

ابتسمت سارة لشعور لطيف سرى في روحها... إنّها في بيروت!

أجل، إنّها في بيروت، في المدينة الحلم! في المدينة التي هجرها النّعاس!

إنّها في المكان الآسر، المُشبع بالجمال!

إنّها في "ستّ الدنيا" التي فتحت أبوابها، على مرّ التّاريخ، للمحبّين والأعداء، للفقراء والأغنياء، لأبناء الوطن وللغزاة، وبقيت على الدوام متمّسكة بالحياة!

تنفّست الصّعداء وسحبت المنديل عن رأسها وألقت به على مقعد بجانبها، وهي مأخوذة بمنظر الشّارع الذي يضجّ بالأحياء.

فمن سيلحظ فَمَها غير المستور؟ ومن سيكترث لشعرها المشلوح فوق ظهرها، في مدينة تعجّ بالسّافرات بين رجال يعبّدون الأرصفة بأقدام مسرعة، ونظراتهم ترنو إلى أشياء وأشياء لا تتّصل

بتلك الأفكار المستقرّة في رأس عمّها أبي محمود وأمثاله؟

وما إن جال عمّها في بالها، حتّى عادت إلى اضطرابها السّابق. فانطرحت على المقعد لتسكّن الأنواء العاصفة في صدرها وفكرها.

فبمَ تُفكّر؟ أفي هاتف قريبها يوسف وأفقها المسدود؟ أم في انكسار عمّها أبي محمود بعد هروبها من البيت؟ أم في دموع عمّتها التي يعجز الدّهر عن محوها؟ أم في هذا الأخير، سيزار، الذي رغم توجّسه في أمرها، تُجبره شهامته على تدبّر أمرها؟

* * *

الوقت تخطّى الظّهيرة، وسارة تُجالس الوحدة في شقّة سيزار، وتحاول أن تُسكّن اضطرابها، من محاولاتها الفاشلة للاتّصال بعمّها، بمتابعة البرامج التلفزيونيّة التي تشتاقها روحها. فيما كان منزل أبي محمود يغلي كالبركان، خاصّة بعد عودة محمود من القرية مُثقلًا بالفشل في العثورعلى ابنة عمّه.

"حبّة ملح وذابت؟!". عبارة لم يكفّ أبو محمود عن ترديدها، وقد أُصيب بعدم اتّزان، إن لم نقل بانفصام في المواقف؛ فهو تارة يفقد صوابه فيثور ويعلو صوته بالتّهديد والوعيد، بأنه سيمزّق سارة إربًا حين تقع بين يديه، وتارة أخرى، يسكنه انكسار رهيب، موجع، فينصرف إلى الصّلاة والدّعاء، متمنّيًا لو أنّه يُمسك بالنّهار ليُطيل إقامته، خوفًا من أن يحلّ اللّيل قبل أن يجدوا سارة، أو يبلغهم عنها خبر.

مجرّد التّفكير بأنّ سارة قد تبيت خارج البيت وفي مكان لا

يُعرف له طريق، جعل الرّعب يرتع في داخله مُعطّلًا قدرته على التفكير، وهو الرجّل الحكيم، وسيّد من يجد الحلول!

لم يكن أبو محمود نفسه يعرف المصدر الحقيقي لهذا الهلع. أهو خوف على مصير سارة المجهول بعد أن غادرت البيت الذي لم تبرحه يومًا وحدها، أم هو الخوف من أن يصبح هروبها خبرًا لذيذًا تلوكه أفواه القرية؟ أهو الخوف من فقدان الطّفلة التي حرص عليها حتّى باتت شابّة يتمنّى أن يفرح بها، أم إنه الخوف من فقدانه سلطة ثوبه وهيبته؟

وحلّ الظلام...

بسطت الهزيمة نفسها على منزل أبي محمود، وتسلّل الشّعور بالخسارة إلى الأنفس التي همدت بعد ثورات من الحزن والغضب، بينما كانت سارة تقف أمام الواجهة الزّجاجيّة في شقّة سيزار، مأخوذة بأفواج الظّلام التي تحاول اكتساح المدينة.

كم تشبهها بيروت في اللّيل!

رغم جحافل الظّلام المتراصّة، يجد اللّيل نفسه يقف مهزومًا عند أسوارها، فاشلًا في الإطباق عليها، عاجزًا عن التسرّب إلى قلبها وروحها...

فها هي بيروت جزيرة متلألئة من النّور، تشعّ من الصّميم رغم السّواد الذي يلفّ جسدها...

ها هي بيروت مرآة روحها!...

رنين الهاتف سلخها عن انجذابها إلى سحر بيروت، وأعادها إلى المأزق الذي تعيشه.

سارعت إلى الهاتف. إنّه سيزار؛ فرقمه يومض على الشّاشة.
رفعت السمّاعة وقالت له على الفور:

- آسفة.

- لِمَ؟

- لأنّني هجّرتك من شقّتكَ.

- لقد أسديتِ لي خدمة بتحريري من شقّتي هذا المساء.

- لكن... قد يمتدّ تحرّرك منها حتّى الغد؛ فهاتف عمّي يوسف ما زال صامتًا.

- لا بأس، لن أنام على قارعة الطّريق.

- ما زلت في مكتبك؟!

- لا. أقفلته عند الخامسة. أنا الآن أتناول العشاء مع صديق لي في مطعم استغفل بيروت وتخطّى الشاطئ متسلّلًا في البحر... المنظر رائع هنا!

- أحسدك. أنا أعشق البحر رغم أنني أخافه، خاصّة في اللّيل، عندما يكتسي بالظّلام ويزداد رهبة وغموضًا.

- تعرفين، لقد كتبتُ خواطر وقصائد عديدة عن البحر وأسراره.

- حقًّا؟!

وأضافت من باب اللّياقة:

- سأقرأها يومًا ما.

دغدغه شعور لم يفهم كنهه... شعور جعله يقول على الفور:

- يعني سنتواصل بعد أن تنتقلي إلى عمّك يوسف؟

صمتت...

فبمَ تُجيبه؟! أتقول له إنّه ليس سوى عتبة لباب عالمٍ جديدٍ يشعّ في بالها، وستتجاوزها ساعة ولوج هذا العالم؟!

أتقول له إنّه سيغدو بعد رحيله مجرّد صفحة من صفحات الماضي، وومضة في ذاكرة الغد؟!

لكنّها آثرت القول، لتترك أثرًا لطيفًا في الرّكن الذي ستستقرّ فيه في ذاكرته:

– لن أنسى فضلك ما حييت.

لم يدرِ لماذا كان يتمنّى أن تجيبه بـ"أجل" أو "حتمًا" أو "ليت" أو "حبّذا" أو حتّى "ربمّا"... فابتلع خيبته وسألها:

– ماذا تناولت على العشاء؟

– لم أتناول سوى جرعة ماء منذ الصّباح.

فثار عليها بجنون:

– أمعقول ما فعلته؟! ستنهارين والباب مُقفل ولا وصول لي إليكِ... أرجوكِ، لا ترميني في مشاكل لا قدرة لي على تحمّلها. اسمعي، البرّاد مليء بألوان شتّى من الأجبان، وفي الثّلاجة كلّ ما يمكن أن تشتهيه من اللّحوم؛ فلقد حشاها جدّي قبل مغادرته خوفًا عليّ من أن أهمل نفسي في غيابه. أرجوكِ تناولي أيّ شيء، أي شيء، مفهوم شيخة؟

– حسنًا، سأدخل الآن المطبخ وأعدّ الطّعام. واطمئن، لن تحصل أيّة مشكلة.

– عديني أنّكِ ستأكلين.

– أعدك.

- خابريني إذا احتجتِ إلى شيء. تصبحين على خير.
- وأنت بخير.

رمى سيزار الخلويّ على الطّاولة أمامه وهو يقول لصديقه بعصبيّة:

- مجنونة.
- إن لم توصلها إلى عمّها بأسرع وقت، ستقع في مشكلة كبيرة يا صديقي.
- أتعتقد ذلك؟!
- أوَتسأل؟! ماذا سيحصل لو علم أحد من أهلها بوجودها معك وفي بيتك؟ بالطّبع سيجبرونك على الزّواج منها للملمة ما يسمّونه "فضيحة"... فهي شيخة وباتت ليلة، إن لم يكن أكثر، في بيتك.

أضاف بعد أن نجح في زرع الهلع في قلب سيزار:

- ألا تعرف تقاليد الدّروز المحافظين وحرصهم على العرض والشّرف؟! عجبا، فأنتَ واحد منهم!

التمعت عينا سيزار رهبة وهو يقول:

- ما الذي جعلني أتعثّر بها هذا الصّباح؟

كان الليل عسيرًا، صَعُبَ على الجميع تجاوزه؛ فالأجساد هجرت مضاجعها، والأفكار القاتمة لم تهجع، والأجفان لم تعرف الغمض.

كان الكلّ ينتظر النّهار لعلّ إطلالته تأتيهم بجديد يمحو القلق، ويطيّب النّفوس المضطربة.

وتثاءب الفجر...

أعدّت أمّ محمود، كعادتها، ركوة من القهوة ونادت زوجها الذي أمضى ليلته جالسًا على المصطبة أمام البيت، وانضمّا إلى زاهية التي بقيت طوال اللّيل على كنبة قرب الهاتف، تنتظر كلمة "ألو" من سارة، يتبدّد بها السّواد الذي لفّ قلبها وأفكارها.

أمّا سارة، التي قضت اللّيل ممدّدة على المقعد قبالة التلفزيون، فنهضت بعد صراع مع الكسل عندما لمحت الفجر يتسرّب من ستائر الواجهة الزّجاجيّة. اغتسلت، ورتّبت شعرها، على أمل أن يُلبّي هاتف قريبها نداءَ استغاثتها.

أمّا سيزار فكان قد غلبه النّعاس عند الفجر، واستسلم للنّوم بعد ليل مزروع بالمخاوف، ليستيقظ على ضجيج الشّارع. هبّ عن الكنبة كالمجنون، واغتسل بسرعة وشرّع أبواب المكتب لاستقبال الموظّفين والزّبائن، ورفع بعد ذلك سمّاعة الهاتف وطلب سارة.

- ألو.

– أعتذر.

– ليس من داع للاعتذار. المقاعد وثيرة في مكتبي.

– جفوني لم تغمض طوال اللّيل.

-- وأنا أيضا؛ لقد نجح الأرق في إقصائي عن النّوم هذه الليلة.

-- وممّ انتابك الأرق؟! أأنا السبب؟

– مشكلتكِ باتت مشكلتنا نحن الاثنين.

خجلها من الموقف تسرّب، عبر صمتها، إلى سيزار. فقال محاولًا أن يُجمّل الكلام:

– دخولك إلى حياتي أسعدني رغم ما يجول في نفسي من شكوك حول قصّتك. شيء ما فيكِ يجعلني أشعر بأنّكِ لستِ غريبة عنّي، وبأنني أعرفكِ منذ زمن بعيد، على الرّغم من أنّ الكلمات التي حيكت بيننا معدودة ومحدودة، إلا أنّ...

وصمت... فقالت له:

– ما الأمر؟ تحدّث بوضوح سيزار.

– يروق لي أن تلفظي اسمي.

تلعثمت وهي تكرّر سؤالها:

– ما الموضوع؟

– بصراحة أنا خائف من أن يعلم أحد من أهلك بأنكِ تقيمين في شقّتي... ماذا لو علم عمّكِ يوسف بالأمر؟ سنقع حتمًا في مشكلة كبيرة ستلازمنا مدى العمر... فهمتِ قصدي شيخة؟

– أجل أفهمك... لا تدع هذا الموضوع يقلقك. فكيف لعمّي يوسف أن يعلم بأنني غادرت القرية بالأمس، ما دمت لن أخبره؟

وإن حصل وعلم بذلك، فسأقول له إنني بتّ ليلتي في فندق.

- خيرًا تفعلين. سأقفل الخط الآن؛ عليّ أن أباشر العمل. وأنت عاودي الاتّصال بعمّكِ، فمكاتب "أوجيرو" قد فتحت دون شك، لعلّ وعسى...

- حسنًا.

وانتهت المكالمة بينهما، وعادت سارة إلى طلب رقم عمّها.

انقضت الفترة الصّباحيّة وهاتف يوسف لا يُجيب.

بعد ملل ويأس من محاولات الاتّصال الفاشلة، نطق هاتف عمّها بصوت نسائيّ:

- ألو.

الغبطة عقلت لسان سارة... فتكرّر الصّوت عبر الهاتف ملحًا:

- ألو... ألو...

- خالتي أحلام؟

- أجل. من معي؟

- وأخيرًا هاتفكم يُجيب! أنا سارة خالتي...

- سارة! أنتِ في بيروت؟!

- أجل خالة. أنا وحدي في بيروت ولا وصول لي إليكم إلا عبر هذا الهاتف الذي أرعبني صمته.

- وماذا تفعلين وحدكِ هنا؟! لا شك أنّ كارثة حصلت لكي يسمح لكِ عمّكِ بالمجيء.

أجهشت سارة بالبكاء.

- ما الذي حدث سارة؟ أقلقتني!

لملمت سارة دموعها وقالت بصوت مُتهدّج:

- أنا بحاجة إليكم خالتي.

- قولي لي أين أنتِ؟...

- أنا... أنا في منطقة الحمرا... كنتُ أتجوّل لأصرف بعض الوقت بانتظار أن يُجيب هاتفكم.

- وأين أنتِ بالضّبط لأذهب إليكِ؟

- ارتبكت سارة واحتارت بما تجيب... فقالت لها أحلام:

- انظري حولك سارة واقرئي أسماء المحال حيث تقفين... أعطيني أية إشارة تُرشدني إلى مكانك.

ازداد ارتباك سارة فهي لا تجهل منطقة الحمرا فقط، بل بيروت بأكملها! فوجدت نفسها تقول:

- خالتي، كي لا نتوه عن بعضنا، سأستقلّ سيارة أجرة إلى قصر الأونيسكو حيث صدّقتُ شهادتي. هل توافينني إلى هناك؟

- بالطّبع حبيبتي. دقائق معدودة وأكون هناك، البيت قريب جدًّا من مبنى الأونيسكو.

- سآخذ تاكسي في الحال.

- قولي للسّائق أن يوصلك إلى " ليبان بوست" مقابل مبنى الأنيسكو. سأنتظرك هناك.

- لن أتأخر.

دقائق معدودة وكانت تحمل كيسها وتنتظر سيزار في موقف البناية.

وصل سيزار. التفّ بسيارته على عجل وهو يُشير لها بأن تصعد

إلى السيّارة.

تقدّمت سارة منه. أعطته مفتاح الشّقّة وهي تقول بارتباك:

– لدينا مشكلة سيزار.

– ما الأمر؟

– خالتي أحلام، زوجة عمّي يوسف، تنتظر وصولي إلى هناك بسيّارة تاكسي. لا يمكنني أن أذهب برفقتك وفي سيّارتك.

عندها ركن سيزار السيّارة وترجّل منها وهو يقول:

– وأنا لا يُمكنني أن أتركَكِ تذهبين وحدكِ.

ركبا التّاكسي...

جلس هو في المقعد الأماميّ، وصعدت هي في الخلف. ثم انطلقت السيّارة بهما إلى الأنيسكو.

أراد سيزار أن يودّع سارة ببعض الكلمات المنمّقة الكفيلة بأن تحفر له مكانًا في ذاكرتها، لكنّ احترامه لزيّها وفي حضور السائق، منعه من ذلك. فاكتفى بالالتفات إلى الوراء والتفرّس في عينيْها والقول:

– اتّصلي بي، من فترة لأخرى، لأطمئنّ عنكِ.

أحكمت قبضتها على الورقة الصّغيرة المكتوب عليها رقم هاتف عمّها ورقم هاتف سيزار، وقالت له:

– سأذكرك دائمًا.

ووصلا...

صاحت سارة بغبطة وهي تشير بيدها:

– ها هي خالتي أحلام...

تقدّمت السيّارة من أحلام. عندها، اطمأنّت سارة وأيقنت أنّها لم تعد بحاجة لرقم عمّها، فكوّرت الورقة بأصابعها حتّى غدت كرة صغيرة وأسقطتها من يدها وهي تترجّل من السّيّارة، بينما سيزار يلاحقها بكلمات عجلى:

- وداعًا شيخة. اتصلي بي...

وتابعت السيّارة طريقها...

طلب سيزار من السّائق أن يتمهّل في سيره وهو يلتفت إلى الوراء، يراقب سارة وهي تضمّ أحلام بقوّة، ثم تسير متمسّكة بذراعها تمسّك غريق بحبل نجاة، غير مبالية بنظراته المتعلّقة بها؛ فقد كان بالنّسبة إليها مجرّد جسر عبرته إلى شطّ الأمان.

التفّت السيّارة، واختفت سارة عن أنظاره...

ارتدت نظراته أسى لا يعرف له سببًا، ووجد نفسه يُخرج الخلويّ من جيبه ويبحث عن رقم عمّها يوسف، يحفّظه تحت اسم "شيخة"، وكأنّه بذلك أراد أن يوثّقها في ذاكرته.

”عمّي يوسف... إذا كان بيتك لا يتّسع لي... فبيروت مدينة كبيرة لن تبخل عليّ بمأوى“.

عبارة حاسمة رمته بها سارة فأغرقته في حيرة عجيبة؛ حيرة سدّت أمام حكمته ورجاحة عقله، كلّ منافذ الخروج من هذه الكارثة التي حلّت عليه.

أجل، إنّها كارثة كبيرة بالنّسبة ليوسف، لأنّها ستجبره على الاحتكاك بأبي محمود بعد انقطاع الوصال بينهما منذ سنوات عديدة.

أسئلة كثيرة ضجّت في داخله ورمته في حيرة قاتلة: لماذا لجأت إليه دون سواه من الأقارب وهو لم يرها منذ أن كُتب كتابها على رشاد؟!

لماذا أقحمته في هذه المشكلة العائليّة؟! فأبو محمود بمقام والدها وهي بمثابة ابنته، فبأيّ حق يتدخّل في المسألة القائمة بينهما؟

وماذا يفعل حيال هذا الموقف المعقد؟! فهل يجور على سارة، ويعيدها قسرًا إلى سجنها، هربًا من مواجهة أبي محمود؟

لِمَ لا؟ فهذه المواجهة ستحتّم، بعد تلك القطيعة، ولادة عداوة بينهما؛ عداوة تجنّب يوسف حدوثها في الماضي، يوم أبعده أبو محمود عن مجلس العبادة وأنكر عليه إيمانه، لأنّه ينظر إلى الدّين

الدّرزيّ بعقلانيّة بعيدة عن طقوس أبي محمود ومجتمعه الدّينيّ.

لكن كيف يتجاهل عاطفته تجاه سارة؟ وكيف يدوس شهامته؟ كيف يتخلّى عنها، ويتركها لقمة سائغة بين فكّي بيروت لتُطبق عليها هذه المدينة وتبتلعها، فتتوه في جوفها الصّاخب ويتبرّأ هو من فعلته هذه أمام ابن عمّه؟

وهل يقوى على تسليمها إلى سجّانها، وعودتها إليه قد تودي بها إلى الجنون أو الانتحار؟

لا بدّ له من المواجهة إذًا!

لا بدّ له من المواجهة مهما كلّفته من عداوة وإهانة واتّهامات، لأنّ مصير سارة يبقى الأثمن والأهم.

وبينما هو مأخوذ بأفكاره أتاه صوت سارة المكسو بالقلق:

– وما قولك عمّي يوسف؟ ماذا قرّرت بشأني؟

– سأتّصل بعمك أبي محمود.

أجابته بصوت يخنقه الألم:

– أتتخلّى عنّي عمّي وما لي أحد سواك؟! أتغلق أمامي أبواب بيتك، وهو المكان الذي علّقت على مشاجبه كلّ آمالي؟!

– لن أتخلّى عنكِ سارة. وهذا البيت بيتكِ، وأبوابه مفتوحة لكِ على مصراعيها.

– ولكن، متى عرف عمّي أبو محمود بوجودي هنا سيجبرني على العودة، هذا إن لم يقتلني...

– يجب أن يعرف بوجودكِ عندي ليطمئنّ قلبه.

انحنت سارة باكية فوق يد يوسف، تقبّلها وهي تتوسّل إليه:

- أرجوك عمّي لا تخبره بوجودي هنا. لا تعيدني إلى قبضته.

رفع يوسف رأس سارة وقبّلها في جبينها وهو يقول:

- اهدئي يا صغيرة...

- لن يتحمّل وجودي في بيتك... سيرغمني على العودة...

جلست على الأرض وتكوّمت على نفسها وهي تنتحب:

- سيعيدني إلى القرية وإلى تلك الحياة القاهرة في بيته... لا أريد العودة إلى هناك؛ الحياة في بيته سمّ أتجرّعه كل يوم، وقد شاء الله أن أبرأ اليوم من هذا السّم، فلا تكن عدوّ الله وعونًا لعمّي على قتلي.

جلس يوسف على الأرض قربها وهو يقول لها بصوت واثق:

- أنا بجانبك سارة، وسيكون لكِ ما تشائين. لكن لا بد لنا من أن نخبر أهلكِ ليطمئنّوا عنكِ، ولنكمّ أفواه أهل القرية قبل أن تتناولك ألسنتهم. من يعلم ماذا سيؤولون عن هربكِ من البيت؟! لذا يجب أن يعرف الجميع أنّكِ في عهدتي، وأنّكِ انتقلتِ إلى هنا لسبب وجيه، وهو إكمال تعليمك.

- لن يتركني هنا. أعرفه.

- ولن أتركه يأخذكِ. اطمئنّي.

- سيشنّ عليك حربًا، ويقوّم الكلّ ضدّك...

- فليبلّط البحر، هو ومن ينصره. أنتِ بلغتِ سن الرّشد ولا حقّ له عليكِ.

التفت يوسف إلى أحلام، وقال لها:

- أعطيها عباءة من عباءاتك لتريح بدنها.

ثمّ نظر إلى سارة وأضاف:

- وأنتِ انزعي هذا المنديل عن رأسك، ولا تضعيه بوجودي، فأنا بمثابة والدك. واذهبي مع خالتكِ أحلام لتغتسلي وتبدّلي ملابسكِ، بينما أتّصل أنا بعمّكِ أبي محمود.

رفعتها أحلام عن الأرض وهي تقول لتهدّئ روعها:

- ستصطلح الأمور، ثقي بعمّك يوسف... هيّا معي لتأخذي حمّامًا ساخنًا يريح أعصابك.

وقبل أن تخرج من الغرفة التفت سارة إلى يوسف وقالت له بألم:

- سلّم على عمّتي، وقل لها إنّني أحبّها كثيرًا، واطلب منها أن تُسامحني، فأنا لم أقصد إيذاءها.

- سأبلغها ذلك. والآن اذهبي مع خالتكِ، أريد أن أتحدّث إلى عمّكِ على انفراد.

خرجت سارة من الغرفة مُحمّلة بالهمّ والقلق من أن يعلم يوسف من خلال اتّصاله بأبي محمود أن هروبها كان بالأمس. عندها ستكون مضطّرة لأن تحوك كذبة مُقنعة تُقصي سيزار عن الموضوع، وتُبعد الشّبهة عنها بعد مبيتها في بيت شاب غريب... أمّا يوسف فكان يستحثّ جرأة قصوى تمكنه من مواجهة عنجهيّة أبي محمود وهو يرفع سمّاعة الهاتف ويطلبه.

رنّ الهاتف في منزل أبي محمود لحظة وصول رشاد الذي أربك الجميع بحضوره. فأسرعت زاهية ورفعت السمّاعة بلهفة:

- ألو!

- زاهية؟ كيف حالك يا ابنة عمّي؟

صوت يوسف زاد زاهية إرباكًا؛ فأبو محمود يمقت حتى سماع

صوته عبر الهاتف. فأجابت مُتلعثمة.

- بخير... بخير، والحمد لله.

- اطمئنّي زاهية، سارة بخير وتطلب منكِ السّماح.

أشرق وجه زاهية...

أرادت أن تشهق بالبكاء... أن تُزغرد... أن ترتمي على الأرض تُقبّلها... أن تصرخ بأعلى صوتها حامدة الله... لكن وجود رشاد أجبرها على ابتلاع فرحتها وكتم انفعالها. فاكتفت بالقول:

- وصلت بالسّلامة؟ الحمد لله.

ثم التفت إلى أخيها وقالت بغبطة:

- هذا يوسف، يخبرنا بأنّ سارة وصلت بخير وسلامة.

صُعق رشاد بهذا الخبر!

- سارة في بيروت؟! وعند العم يوسف؟! ردّد مستنكرًا.

عندها هبّ أبو محمود من مكانه وأخذ سمّاعة الهاتف من زاهية وطلب من الجميع أن يخرجوا من الغرفة وأن يغلقوا الباب خلفهم.

وما إن انفرد في الغرفة، حتّى بادر أبو محمود قائلًا بلهجة صارمة ودون أن يُلقي عليه التّحيّة:

- ضعها الآن في سيّارتك وأرجعها إلى هنا.

- اهدأ يا ابن عمّي ولنناقش هذا الأمر بهدوء.

- لا نقاش في الموضوع. أحضرها حالًا.

- سارة ستبقى عندي إلى أن تهدأ وتعود إليها صحّتها النّفسيّة.

- قلت لكَ لا نقاش في الموضوع. لن تبقى عندك شاءت أم أبت.

- سارة ستقيم عندي شئت أم أبيت يا ابن عمّي.

خنق أبو محمود حدّته كي لا يرتفع صوته ويسمعه رشاد، وهو يجيبه:

– لن أتركها لحظة واحدة في بيتك كي لا تفسدها بأفكارك التي حاولت بها تضليل الورعين في القرية.

– أنتَ من أفسدها يا أبا محمود... أنت من جعلها ترى الدّين ظلمة لا نورًا وهداية... أنتَ من صوّر لها الحياة نقمة لا نعمة من الله عزّ وجلّ... أنت من ساقها إلى كره البيت الذي ولدت فيه وتربّت بين جدرانه، بعد أن حوّلته إلى سجن لروحها وجسدها... أنت من جعل حبّها لك يتحوّل إلى خوف منك وتمرّد عليك.

حاول يوسف أن يتمالك نفسه، ليضيف بلهجة هادئة وقاطعة في آن واحد:

– اسمع. لا علاقة لك بسارة بعد اليوم، فهي راشدة ومن حقّها أن تختار المكان الذي تأنس به. وقبل أن أُقفل الخطّ، يجب أن تُعلم مَن يسأل عنها بأنها في عهدتي حتّى تنتقل إلى بيت زوجها. ويجب أن تعلم أنّها ستتابع تحصيلها العلمي. وإيّاك أن تتعرّض لها لأنّني سأقف لك بالمرصاد، حتّى لو اضطررت للّجوء إلى القانون. فإن سكتُّ عنك بالأمس فلن أسكت اليوم أو الغد.

– تريد أن تفضحنا يا يوسف؟

– أنا أنقذك من الفضيحة يا أبا محمود؛ فانتحارها أو جنونها فضيحة لن تتفلّت من ذنوبها وسينوبك منها عذاب الآخرة. بلّغ خطيبها أن بيتي مفتوح له، إن أراد رؤيتها.

وأقفل يوسف الخطّ...

كان هروب سارة ولجوؤها إلى يوسف كعاصفة هوجاء باغتت أبا محمود ووضعته في موقف لا يُحسد عليه؛ فأجبرته على الرّضوخ لما ينبذه والاعتراف بما يرفضه؛ إذ وجد نفسه بين يوم وليلة، مضطرًّا للمجاهرة أمام الملأ بهذا الواقع المستجدّ.

ولكن، كيف سيبرّر قبوله بإقامتها عند من يصفه بالمعتدي على الدّين؟

كيف سيعلّل ذهابها إلى بيروت والعيش في بيئتها المتحرّرة، وانخراطها في المجتمع الجامعيّ؟

كيف سيفسّر انكبابها على قراءة الكتب التي ينبذها، وانصرافها عن كتب الدّين؟ كيف سيتقبّل كلّ ذلك؟ وبأيّة نظرة ستواجهه بيئته؟

هذا الواقع هدّ أبا محمود وأصابه بالانكسار...

أمّا رشاد فانكفأ على نفسه معتكفًا في غرفته، مستشعرًا شوقًا قادمًا إلى حبيبة العمر، بعد أن تفلّتت من قبضته بولوجها عالمًا آخر لا يعرف هو أبجديّته؛ هذا العالم الذي أنعش حياة سارة، فانطلقت فيه منذ اليوم الثاني لوجودها في بيت يوسف، لتحقّق أحلامها بالانتساب إلى الجامعة والالتحاق بقسم اللغة العربيّة، بعد أن أقنعها يوسف بالابتعاد عن كليّة الفنون، والبحث عن اختصاص يكسبها مهنة تستطيع من خلالها أن تكسب عيشها وتعتمد على نفسها في الحياة.

* * *

صحيح أن الحرمان تربة خصبة للآمال، يُغذّي النّفوس بالرّجاء ويشحنها بالتّوق إلى النّهوض والتّطلّع... وصحيح أنّ الحرمان

وقود تشعله الأمنيات، فتلتهب النّفس إصرارًا على تحقيقها. وإلا، فما الذي جعل الحياة تنبعث في روح سارة الرّاقدة في اليأس، وتدفعها لفكّ الحصار عنها والهروب إلى خارج الأسوار؟!

وما الذي حثّها لتنسحب من عتمة أيّامها وتدوس عالمًا بأسره، وتمضي دون أن تلتفت إلى الوراء، وإلى ما خلّفته في النّفوس من دمار؟!

وما الذي جعلها ترنو إلى الآفاق وتتمسّك بأذيال النّجوم وتمتطي سُحب الأحلام لتقف، على الأقل، أمام ذاتها وتقول ملء الثّقة: "هذه أنا"؟...

ولكن، كيف لها أن تتسلّق قمم الحياة بجسد لم ينل من الحريّة سوى نظرات استطاعت أن تتفلّت من قبضة هذا الثّوب السّجّان الذي يأسر جسدها ويطمر روحها بالحرمان؟

وكيف لها أن تساكن الرّاحة والسّعادة وهي تشعر بأنّها تعيش في جسد مأسور، ناء عن الحريّة؟

ومن أين لها أن تستشعر روح الحريّة ونبضها، وهي لا تملك حتّى السّيادة على أول ممتلكاتها؛ ألا وهو جسدها؟

صحيح ما يقوله برغسون: "إنّ الحريّة حالة شعوريّة، لكن أنّى للرّوح أن تبلغها إذا كان الجسدُ مكبّلا ؟".

هي تعرف جيّدًا أن الحريّة أثمن غايات الإنسان وأنّها تحتاج إلى قدرٍ كبيرٍ من الجرأة للاستئثار بها، فهل تجرؤ على التّصريح بما تضمُر؟

لِمَ لا، ما دامت تملك من الجرأة ما يُحفّزها على الإقدام، فما

الذي يجعلها صامتة خانعة حتّى يومها هذا؟!

ما الذي يردعها عن المضي في هذا الطّريق الذي اختارته، رافسة خلفها كل الماضي الحافل بالخطوط الحمراء؟!

ما الذي يُجبرها على إبقاء جسدها رهينة ثوب خاطته أفكار منغلقة على ذاتها في عقول ترفض الحياة برأيها؟

ها هو موعد بداية العام الجامعيّ يقرعُ الأبواب، وما عاد بينها وبين عتبة كليّة الآداب سوى يومين اثنيْن، ورغبة ملحاحة لاجتيازهما بروح مُحرّرة من أسمال الماضي، وبجسد نافض عنه هذا القيد، الذي رسمه عمّها أبو محمود كرباط حقيقيّ بالإيمان.

هي تُدرك جيّدًا أن الوقت لا ينتظر أحدًا. وأنّه سيقضم هذيْن اليوميْن بنهم ويرمي بها، بغمزة عين، على مقاعد الجامعة، وهي مُلتحفة بهذا الثّوب الذي يعطيها هويّة لا ترغب في الانتماء إليها؛ صحيح أنّها فخورة بانتمائها المذهبيّ، لكنّها تؤمن في الوقت نفسه أن الدّين عقيدة وإيمان، لا زيًّا تكتسيه الأبدان.

هكذا هي، ترى الحياة ميدان امتحان بما وهبنا الله من مواهب وأحلام، لا احتجابًا عن النّور وانغماسًا في الظّلمات.

هكذا هي، تعلّق أبصارها بالنّجوم وفي جعبتها الكثير الكثير من الآمال.

لذا، تشبّثت سارة بما تملكه من إصرار، وحملت صينيّة القهوة، ثمّ دخلت غرفة الجلوس لتنضمّ إلى يوسف وأحلام وابنهما الصّغير والوحيد بهاء، الذي يفترش الأرض مأخوذًا بشاشة التّلفاز.

وقف يوسف ليأخذ الصّينيّة من سارة وهو يقول:

- سلمت يداكِ... هاتيها، أنا سأسكبها.

راحت سارة ترشف من فنجانها وهي تحاول أن تأخذ مع كلّ رشفة جرعة من جرأة بدأت تتفلّت منها.

لاحظت أحلام توتّر سارة. فسألتها على الفور:

- لِمَ هذا التوتّر؟ أهي الجامعة؟

اصطنعت سارة ابتسامة باهتة وهي تُجيب:

- ربما...

- أنا وعمّك أحضرنا لكِ شيئًا. تعالي... اقتربي منّي.

وضعت سارة فنجانها جانبًا، واتّجهت ببلادة نحو أحلام التي رفعت، عن طاولة بقربها، علبة صغيرة، وفتحتها وهي تقول:

- هذا لكِ. خذيه.

أشرقت عينا سارة فرحة ملؤها الدّهشة:

- خلويّ؟!... لي أنا؟!

حملته بحذر، وراحت تقلّبه في يدها وهي تقول بارتباك:

- يبدو حديثًا ومتطوّرًا... لا يشبه جهاز رشاد... لا أجيد استعماله.

- سأعلّمكِ كيفيّة استعماله. سيكون وسيلة للتّواصل معكِ وأنتِ خارج البيت. وستحتاجين إليه حتمًا في الجامعة.

ارتمت سارة فوق صدر أحلام وضمّتها بقوّة وهي تردّد:

- شكرًا لكِ خالة... لطالما حلمت باقتناء واحد.

- لطالما حلمنا أنا وعمّك بإنجاب بنت، لكنّ الله لم يشأ أن يرزقنا إلا ولدًا واحدًا وبعد عمر من الصّبر والانتظار.

- حماه الله لكما...

وخنقتها العبرات...

أجلسها يوسف قربه وهو يقول:

- ولِمَ هذه الدّموع؟

- إنّه الفرح عمّاه... منذ وطأت قدماي عتبة هذا البيت تبدّد الفراغ الذي كان يملأ حياتي، وبتُّ أشعر بأنّ لي جذورًا تمتدّ في تربة متماسكة ترتوي كلّ لحظة حبًّا وحنانًا... كم يؤلمني الشّعور بأنني انتمي إلى أمّ محا الموت صورتها من ذاكرتي، وإلى أب يرفضني ويستسلم للهروب من واقعه، وإلى عمّ ينظر إلي تارة كحشرة صغيرة لا تستحقّ إلا السّحق، وتارة أخرى كحمل ثقيل يريد الانعتاق منه بأيّة طريقة، حتّى لو كان ذلك بالزواج القسريّ.

لملمت دموعها وأضافت وهي تبتسم:

- أشكر الله أنّه رماني في حضن عمّة حنون، ساندتني لأسكّن ألم هذا الحرمان، لا بل هذا التّوهان.

مرّر يوسف يده بحنان على رأس سارة وهو يقول لها بنبرة حماسيّة:

- دعي الماضي وارْني إلى الغد. سترتادين الجامعة وستنالين الشّهادة، وستعملين وترسمين وتُقيمين المعارض... سنكون سندًا لك في كلّ خطوة.

- ستساعدني لأصبح رسّامة مشهورة؟!

- بالطّبع. وسأفتح لكِ صفحة على "الفيسبوك" لتنخرطي في المجتمع، ولتنفتحي على العالم، ولتقلبي صفحة الماضي...

- ستعلّمني الانترنت؟!

- أجل أيتّها الجميلة. سأعلّمكِ الانترنت لتخرجي من هذه القوقعة التي رُميتِ فيها.

سألته باستغراب:

- كيف تكون متديّنًا ولا تكون ضدّ الانترنت؟!

- ولِمَ أكون ضدّها؟ إنّها تضع العالم بين أيدينا.

- عمّي يقول إنّ الكمبيوتر بما يقدّمه، عدوّ للدين!

- للأسف هذا هو الخطأ بعينه. فنحن إمامُنا العقل، والعقل هو من أنتج هذا الاختراع. وقد جاء في حكمتنا الشّريفة: "وقد اتّسعت لعقولكم أفسح الميادين".

تأمّلته طويلًا وهي تحاول أن تُخرج مِنْ فيها أسئلة تدور في دائرة الاتّهامات التي رماه بها أبو محمود.

لحظ يوسف ذلك، فقال:

- في فمكِ كلام!

نطقت بعد تردّد:

- كيف تكون متديّنًا وأنت لا ترتدي ثوب الدّين؟!

- هذا لأنّني أقرأ ديننا قراءة صحيحة. وهذه القراءة قوّلت عمّك وأنصاره، كلامًا خاطئًا عنّي. وهذا الكلام أبعدني عن قريتي وأذبل علاقتي ببعض أقاربي ومنهم عمّك أبي محمود.

- وقراءتك هذه، لا ترى أنّ المرأة كلّها عورات، كما يقول عمّي، والعورات وجب سترها بهذا الزّيّ الذي يفرض على الفتاة أن ترتديه فور نضوجها؟

- وممن وجب ستر هذه العورات؟

- من الرّجل!

- السّترة يا صغيرتي تكون بالعقل الرّاجح، وبالرّزانة، والعفاف، والطّهارة، ومكارم الأخلاق وبالتبرّؤ من الشّكّ والنّفاق والعصيان.

تنهّد بأسى وأضاف:

- العورة لا تكمن في جسد المرأة، بل في نيّة الرّجل. وهل يفلح هذا الثّوب في سترها عن نيّة الرّجل؟

وعقّب قائلًا:

- صحيح قد ورد في كتابنا أنّ على النّساء أن يكنّ منقّبات لا سافرات؛ لكنّ النّقاب، وهو غطاء الفم، يعني إلزام الصّمت والسّكوت حتّى تُصبح المرأة برتبة "المفيد" وهو الذّكر صاحب الرتّبة الأعلى. لكن في عصرنا هذا، لم يعد الذّكر أعلى رتبة من المرأة؛ فالمرأة تساوت مع الرّجل إن لم نقل تفوّقت عليه في مواقع عديدة، ولم تعد مجرّد جسد وعورات، فهي عنصر مجتمعي له كيانه ووجوده وجوهره. فالمعتقد التوحيديّ حدّد منذ البدء أنّ النّفس في جسد الذّكر أو في جسد الأنثى هي كيان مستقلّ ومتكامل، له كينونته الخاصة به، وله بصْمَتُه التي تميّزه عن غيره وتجعله هو ذاته ولا شيء غير ذاته. معنى هذا الكلام أنّ المرأة ليست ظلًا للرجّل إنما هي كما الرجل، إنسان فاعل، مفيد ومستفيد.

- ألهذا لم تفرض على خالتي أحلام أن ترتدي زيّ الدين؟

- كنت أفضّل لو أنها تضع منديلًا على رأسها، يعطيها سمة مذهبنا الدّرزيّ. لكنّ فلسفة التّوحيد تعتبر الإنسان، رجلًا كان أو

امرأة، كيانًا مستقلًّا حرًّا ومسؤولًا، غير مجبر أو مُكره. لذا، لا يحق لي إجبارها على شيء. ولا ننسى أنّ الدين عقيدة تدخل من العقل إلى الرّوح، ولا يقاس بالثّوب ولا بالمظهر. لذلك تركت لزوجتي حقّ الاختيار، اختيار ما ترتديه شرط أن يكون محتشمًا.

– لقد هوّنت عليّ طلبًا لوى جرأتي مرارًا وتكرارًا.

– اطلبي ما شئتِ.

– لا أعرف عمّي، متى وكيف تحرّك هذا البركان الرّاقد في داخلي ليُدفق الحياة في عروقي، وليقذف بي من الهامش المنسيّ المهمل، إلى دنيا مزروعة بالأحلام. كلّ ما أريده الآن أن أعبُر الحياة كهؤلاء اللّواتي يعبرنَ شوارع بيروت بروح وجسد حرّيْن...

– لم أفهم قصدك سارة!

صبّت نظرها في عيني عمّها، ثمّ أخذت نفسًا عميقًا. ودون أن يرمش لها جفن، قذفت هذه الحمم من فيها:

– أريد أن أتحرّر من ثوب الدّين.

أخرسه طلبها ورماه في ميدان حرب قادمة مع أبي محمود. ماذا يقول لها، بعد هذا الشّرح المسهب عن الثّوب والنّقاب؟

أيقول لها، لا شأن لك بعقيدتي واعتقادي؟

أيقول لها، أنتِ مُجبرة على ارتدائه لأنّ عمّكِ أمر بذلك؟

أيقول لها، ارحميني، فأنا لا احتمل تُهمة أخرى أُرجم بها؟

ولكن كيف يخذلها ويخون عقيدته ويجاري أبا محمود في جوره عليها؟

رفع إليها بصره، وقال لها بلهجة حاسمة:

- لكِ ما تريدين. لقد بلغتِ السنّ التي تسمح لكِ بأن تكوني سيّدة نفسك.

أطرقت قليلًا، ثمّ قالت له:

- أعرف بما تفكّر... سيقول عمّي أبو محمود إنّك أنت من شجّعني على ذلك.

- حتمًا... ولكنّ الأمر لا يهمّني، ما دمتُ أعرف نفسي أنّي بريء من تهمته.

- لن يعرف أحد بذلك. سأخفي عنه الأمر.

- سيكتشفه.

- كيف، وقدماي لن تَطِئا القرية بعد اليوم؟

- من طلّاب العلم في القرية، وهم كثر في كلّية الآداب.

- لن يعرفني أحد بعد أن أقصّ شعري وأغير ثوبي.

- سيعرفونكِ من اسمك.

- سأغيّره... فمنذ أن اجتزتُ أسوار عمّي، ولدتْ في داخلي إنسانة جديدة، وما من مولود يحيا دون اسم.

ثمّ أردفت تقول:

- أمي كانت تريد أن تُسمّيني "مرام"، لكنّ عمّي فرض عليها اسم سارة لأنّه ذو صبغة دينيّة... من الآن سأخلع هذا الاسم الذي لم يتفضّل عليّ إلا بالوحدة والأسر، وسأسمّي نفسي "مرام".

ثمّ رفعت رأسها باعتزاز وقالت:

- من هذه اللّحظة لم يعد من وجود لسارة... بات اسمي "مرام".

قهقهت أحلام وهي تقول:
- أهلًا بك مرام.
التفت بهاء وقد جذبه ما سمعه عن متابعة التلفاز، وقال مستغربًا:
- غيّرتِ اسمكِ سارة؟!
- أجل حبيبي. ولا تنادني أبدًا "سارة" لأنّي لن أجيب ولو بُحّ صوتك. اسمي من الآن "مرام".
ركض نحوها ثمّ رمى بنفسه في حضنها وهو يقول:
- أحبّك مرام.
بسطت السّعادة نفسها على الوجوه. وسارعت أحلام بتناول هاتفها الخلويّ وهي تقول بغبطة:
- سأتّصل بصديقتي ناديا لترسل لنا من محلّها بعض الملابس التي تناسبك؛ فلن تخرجي من المنزل بعد الآن بثوب ترفضينه، ولن أدعكِ تجتازين به هذه الخطوات القليلة التي تفصلنا عن "البوتيك".

كم من مرّة ضربت لنا الحياة موعدًا مُخالفًا لقانون حياتنا!

فها هي سهى، والدة سيزار، ومنذ لحظة وصولها إلى الوطن، تشعر أنّها تسير في الاتّجاه المعاكس لإرادتها، لتقف وجهًا لوجه أمام ماضٍ حاولت أن تُقصي نفسها عنه منذ أكثر من عشرين سنة.

فما إن وطئت أرض المطار، حتّى أفرجت ذاكرتها عن الماضي، ليبسط نفسه بسجلّ ذكرياته، على مساحة روحها وقلبها وبالها.

كلّ شيء في لبنان تغيّرت ملامحه بعد غفلة للعمر في الغربة، إلا ذكرياتها؛ ذكرياتها التي استيقظت بحلْوِها ومرّها، وارتسمت أمامها دفترًا مفتوحًا زاخرًا بكلّ تفاصيل "الذي كان".

كم كانت تخاف العودة كي لا تواجه هذه الذّكريات التي عصت على الزّمن، فلم تصدأ ولم تشخ، بل بقيت منحوتة بكلّ بريقها وأنينها.

كم كانت تهاب هذه العودة، كي لا تقف خجلى فوق ترابٍ حَضَن أختها الوحيدة حين جعلت حضنها هي قصيًّا عنها.

كم كانت تأبى هذه العودة، لأنّها كانت على يقين بأنها ستجد نفسها على مفترق طرق بين دربيْن شائكيْن ولا سبيل آخر غيرهما، ولا تعرف أيّهما تختار.

فهل تحيا في لبنان كأنّها لا تزال في الغربة، مُتجاهلة وجود ابنة أخت لها، تقطن على مقربة منها؟

وهل تقوى على ذلك، والبئر التي وأدت فيه لهفتها إليها، طفحت وما عادت تتسع لتلك الأشواق التي تخلعها عن صدرها كلّ يوم؟ أم تطرق بابها وتقول لها: دوسي على ما فات من الزّمن... اصفحي عنّي... برّئيني من الحرمان الذي رميتكِ به... واهرعي إليّ... أضيئي العتمة التي خلّفها غياب أمّكِ.

ولكن، كيف تجرؤ على هذا الطّلب، وترجوها أن تمحو عمرًا من الجفاء، وما من ممحاة يمكن أن تمحو مآسينا؟!

نبّهها زوجها وابنتها سيلين إلى يد سيزار التي تلوّح لهم من بعيد. فتوجّهت إليه مستأذنة كلّ الصّور التي استحضرتها أنفاس الوطن، لذلك البيت الجبليّ الصّيفيّ، بكلّ ما جال فيه من أحداث: خطوبتها، زواجها، وخسارتها لأختها في ذلك الصّيف الجائر الذي اختطفها وحوّلها إلى مجرّد صورة في إطار تحمله في حقيبتها أينما توجّهت.

اجتازت سهى المسافة التي تفصلها عن ابنها بخطوات عجلى، لتطوّقه بذراعيها وتزرع وجهه وعنقه بالقبل.

فكم اشتاقت إليه! وكم قلقت عليه!

لقاؤها به طرد كلّ اضطرابها، بعد أن أعاد شمل العائلة التي لم تنعم بالاستقرار منذ خمس سنوات، أمضى سيزار معظمها في بيروت، وقضى والده قسمًا كبيرًا منها، متنقّلًا من مدينة إلى أخرى لتصفية أعماله استعدادًا للعودة والاستقرار في لبنان.

الشّقة في الحمرا أثارت دهشة سهى وزوجها غسّان. فعندما هجراها إلى أستراليا، كانت مختلفة تمامًا عمّا هي عليه اليوم.

فما كادا يجتازان العتبة حتّى أطلّت عليهما بوجه يفوق جماله جمال الصّور التي كان يرسلها لهما سيزار عبر الانترنت، بعد كلّ تعديل يُجريه عليها.

سيلين التي ولدت وشبّت في الغربة، لم يكن يعنيها هذا التّغيير. فدخلت غرفتها على الفور بعد أن استدلّت عليها من سيزار. بينما راح غسّان وسهى يجولان، برفقة سيزار، أنحاء عشّهما الزوجيّ الأوّل.

فكلّ ما في الشّقّة جديد أو مُتجدّد؛ الواجهة الزّجاجيّة، النّوافذ، الأبواب، المطبخ بجدرانه البورسولانيّة وخزائنه الخشبيّة التي تُحيط بأرضه الرّخاميّة... الأثاث البسيط الأنيق والزّاهي... الستائر التي تنسدل كأجنحة الفراشات وهي تُحاكي بألوانها الأنوار الخافتة التي تطلّ بخفر من ركن هنا وركن هناك، لتُضفي هدوءًا ورومانسيّة على المكان المتّشح بخطوات الظّلام الأولى مع احتضار النّهار... حتّى الجدران بألوانها واللّوحات التي تعتليها، تنطق بغير لغة الأمس!

قطع سيزار رحلة الدّهشة هذه قائلًا:

– يبدو أنّها أعجبتكما...

أجابته سهى ممازحة:

– نحن شخنا في بلاد الغربة، بينما هذه المُتصابية خضعت لعمليّات تجميل أعادتها إلى عمر الشّباب، لا بل إلى سن المراهقة!

– لكن غرفتكِ، ماما بقيت على حالها. تركت أمرها لكِ...

قاطعه والده قائلًا بعفويّة:

- حسنًا فعلت. لعلّها بذكرياتها تُعيدنا، أنا ووالدتك، إلى عمر الشّباب وسنوات زواجنا الأولى.

ضحكت سهى طويلًا وقالت وهي تُربّت على كتف زوجها:

- تحدّث عن نفسكَ حبيبي. فأنا ما زلتُ شابّة.

- شابّة وقد تخطّيتِ الأربعين!

وضعت وجهها أمام وجهه وهي تقول:

- ها... أمعن النّظر في وجهي، لم تستطع السّنوات أن تغزوه. الزّمن يحترمني حبيبي، بينما وجهكَ...

أضافت وهي تمرّر أصابعها حول عينيه وتلامس عنقه المنحوت بنصف قرن من العمر:

- من الأفضل أن تنظر إلى نفسك في المرآة.

ثمّ رفعت نفسها قليلًا حتّى لامست شفتيها عنقه، وقبّلتها وقالت له بهيام:

- أحبّ هذه التّجاعيد التي ترسم على جسدك رحلة عمري معك.

ضمّها غسّان إلى صدره بينما صاح سيزار وهو يصّفّق:

- اللّه، اللّه. مشهد عاطفيّ بامتياز. سأنظم قصيدة رائعة لتخليده.

القهقهة ملأت المكان، قطعها صوت سيلين الذي اخترق بقوّته جدران غرفتها:

- ماما... خزانتي صغيرة، لن تتسع لثيابي.

جحظ سيزار عينيه مستنكرًا:

- ألم تتغيّر؟!

هزّت رأسها سهى أسفًا:

- ولن تتغيّر... ستدخل الجامعة وما زالت تتصرّف كأطفال الحضانة... سأساعدها.

انسحبت سهى، بينما التفت سيزار إلى والده:

- بابا، خذ قليلولة تُريحك من عناء السّفر، في الوقت الذي سأذهب فيه لإحضار شيءٍ نأكله.

- لا تغب طويلًا بني، أكاد أموت جوعًا.

تلألأت نظرات غريبة في عيني سيزار؛ نظرات تحمل لون الفرح منسوجًا بلهفة الشوق وهو يقول:

- أنا سعيد جدًّا بابا. منذ زمن لم تجمعنا مائدة واحدة.

ها قد حان الصّباح الذي ستلامس مرام فيه أول أحلامها: الجامعة.

وها هي تقف أمام المرآة بثوب جديد، واسم جديد، وجسد جديد يتنفّس ملء مساماته كلّ الرّغبة في العيش.

وها هي تقف أمام المرآة بروح عجيبة، وفي عروقها تسري كلّ الحياة، وكأنّها ولدت من جديد... لا بل، كأنّها دخلت للتوّ رحم الوجود لتتكوّن وتتشكّل كباقي البشر...

التفتت إلى خزانتها المفتوحة...

ثوبها الأسود المتدلّي يرصد غبطتها العارمة بعد أن نجحت في سلخه عن جسدها، ويقرأ إصرارها على الكفاح والكفاح لتمحو سواده الذي تمدّد فوق مساحات شاسعة من روحها.

خطت باتّجاهه...

وقفت قُبالة صَمْته تقول:

"وداعًا للخسارات...

وداعًا للزّمن المظلم الظالم...

وداعًا للأسى الذي حاصرني بدوّامته لسنين وسنين طوال، وهو يلوك حرّيتي على مرأى من شغفي بها".

تأمّلته للحظات...

كانت عاجزة عن إقفال باب الخزانة عليه...

كان لا بدّ لها من أن تُحاكمه بعد أن حكم عليها بالأسر في ظلماته لعمر من عمرها.

نزعته عن شمّاعة الملابس بعصبيّة...

قلّبته بين يديها بحيرة واضطراب، وهي تُخاطبه:

"ماذا أفعل بك؟... أمزّقك؟... أرميك؟... أواريك في مكان منسيّ؟...

كيف أنتقم لسنواتي الضّائعة، منك؟ وأي حكم يليق بجورك ومصادرتك لأجمل أيّام العمر؟".

وقبل أن تُعلن حكمها عليه، أعلنت أحلام عن حضورها بطرقة خفيفة على الباب.

- ادخلي خالتي.

دخلت أحلام وهي تقول بانهماك:

- تأخّر باص الشّقيّ قليلًا، لكنّ الوقت لا يزال ملكنا...

الثّوب بين يديّ سارة جعلها تقطع حديثها، وتبادرها قائلة:

- تريدين التّخلّص منه؟ هاتيه حبيبتي.

ارتسمت فوق شفتي سارة بسمة نُسجت بألوان وألوان من المشاعر؛ بسمة لها لون السخريّة، وبريق النّصر، وهدوء الثّقة، وسحر فرح لم يستطع أن يستر مسحة من شجن يرقد في حنايا الرّوح.

أجابتها بتأكيد:

- لا خالتي... لا، لن أتخلّص منه.

قالت ذلك وهي تعيده إلى شمّاعة الملابس من جديد.

باستغراب شديد سألتها أحلام:

- وماذا تفعلين؟ أستبقينه في الخزانة؟! عجيب أمركِ! كنت أتوقّع منكِ أن تمزّقيه... أن تتصدّقي به... أن...أن... آه، لا أعرف... كلّ ما ظننته أنّك ستوارينه عن أنظاركِ.

علّقته في الخزانة وهي تقول بألم:

- لن أمزّقه خالتي، ففي عتمته يرقد صمت سنواتي الضّائعة... لن أرميه وأريحه من عذاب نبذي له. ولن أتصدّق به كي لا يبسط ظلامه على مظلومة أخرى غيري. ولن أواريه في صفق مخفيّ منسيّ ليداري هزيمته أمام انتصاري. سأثأر منه، وعلى طريقتي. سأتركه يتدلّى هنا قبالة هذه الثّياب الجديدة، ليشهد كلّ صباحٍ، رغبتي فيها وانصرافي عنه، فأشهد أنا معاناته وأستمتع بخلاصي منه. سأهمّشه وأعزله عن جسدي، كما همّشني وعزلني عن الحياة لسنوات وسنوات.

- افعلي كلّ ما يجعلكِ تبرئين من ألمك حبيبتي.

تنهّدت زافرة بعض من المآسي الرّاتعة في داخلها، ثمّ أقفلت باب الخزانة لتفتح بابًا آخر تُطلّ منه على أحلام الغد. وقالت بجهوزيّة تامّة:

- أنا جاهزة خالتي.

- هيّا بنا إذًا.

حملت حقيبة يدها، بعد أن وضعت قلمًا ودفترًا صغيرًا في داخلها. وقبل أن تغادر الغرفة، التفتت من جديد إلى المرآة المتشبّثة بباب الخزانة.

للوهلة الأولى لم تعرف تلك المنتصبة في مرآتها. تراءى لها أنّها ستلمح جسدها المطليّ بالسّواد، لا هذه القامة النّحيلة المستورة بسترة زهريّة طويلة الأكمام، تنحسر عن عنقه وتحصر خصرها الرّقيق فوق بنطال من الجينز.

اكتست نظراتها ببريق الدّهشة...

كم كان يستهويها ارتداء الجينز!

مرّرت أصابعها المضطربة في شعرها الذهبيّ الذي يعلو عنقها من الخلف، ويطول قليلًا من الأمام ملتفًّا حول وجهها بخصلتيْن حريريّتين تلتقيان تحت ذقنها الدّقيق. فاتّشح وجهها بأمارات الخجل وارتسم الاضطراب في نظراتها.

سألتها أحلام:

– تفتقدين شعركِ؟

– لا...

– ما الأمر إذًا؟ ما الذي بدّد حماستكِ؟!

بعد قليل من الصّمت المُربك، قالت:

– خالتي... أشعر كأنّني عارية! أخشى الخروج هكذا.

– هذا طبيعيّ حبيبتي؛ سارة التي لم تخرج منكِ بعد، تشعر بذلك. لكنّ مرام التي تقف أمامي الآن، ليست عارية، بل ترتدي ثيابًا مُحتشمة، تليق بأدبها وأخلاقها.

ثمّ أضافت بلهجة تضجّ بالحماسة:

– هيّا بنا مرام. الجامعة تنتظركِ.

كم كانت صعبة عليها خطواتها الأولى خارج المنزل وسط

الخوف الذي يطلّ من شقوق الأمس!

كانت تعبر كورنيش المزرعة باتّجاه الجامعة بخطى متعثّرة وعينيْن مربكتيْن تراقبان زحمة الشّارع، وترصدان نظرات العابرين.

كانت تشعر مع كلّ خطوة كأنّها تقترف عملاً مشينًا.

كانت تمشي والخوف الذي خزّنه الزّمن الفائت يرشح من نظراتها الهائمة بكلّ ما يحيط بها.

كانت تحسّ كأنّ نظرات عمّها أبي محمود تلتصق بها، وتلسع تلك المساحات الصّغيرة، من جلدها، المكشوفة للعيان.

ولم تكن أحلام أقلّ ارتباكًا منها؛ ففور خروجهما من المنزل سكنها الخوف الشّديد من أن تلتقي أحد المعارف أو الأقارب، فيتعرّف إلى سارة، وينكشف سرّها في يومه الأوّل، ويتسلّل إلى رشاد وأبي محمود.

سرت قشعريرة في جسدها حين راودتها هذه الفكرة. فطلبت من مرام أن تحثّ الخطى، وحرصت عليها أن تسجّل في ذاكرتها أسماء المحالّ التي تمرّان بقربها، لتسترشد بها في طريق العودة.

ووصلتا إلى مفرق الجامعة...

الطّلاب يدلفون فرادى وجماعات...

أمسكت أحلام بيدي مرام المتعرّقتين رغم الصّقيع المخيف الذي اجتاحهما، وحضنتهما بيديها برفق وحنان، وهي تقول:

- ها هي كليّة الآداب. اذهبي واستدلّي بنفسكِ على قسم اللّغة العربيّة.

الإرباك أخرسها... فأومأت برأسها بالإيجاب. بينما أحلام تضيف قائلة:

- سأنصرف أنا الآن. جهازك الخلويّ معكِ؟

هزّت رأسها بالإيجاب.

- إذا احتجتِ لأي شيء اطلبيني، وسأكون عندكِ خلال دقائق.

تسمّرت مرام مكانها بعد أن غزا الخوف من المجهول كل أوصالها.

ضمّتها أحلام ثمّ قالت لها بلهجة رقيقة:

- الحياة تبتسم لكِ، فلا تكسفيها. هيا حبيبتي، اذهبي.

* * *

أسبوعها الأوّل في الجامعة علّمَها أبْجديّةَ الاعْتماد على النّفسِ، وكيفَ تكون كيانًا حاضرًا، لا ظلًّا للآخرينَ؛ فمع كلّ خطوةٍ باتّجاه الكلّيّةِ كانت ثقتها بنفسها تنمو وتكبر لتحتلّ مساحاتِ الخوفِ والوَجَلِ الرّاتعةَ في داخلها. وكانت "سارة" الرّاقدة في روحها تضْمَرُ وتَضمَرُ أمام شخصيّةِ "مرام" التي تتفَتَّحُ وتتلوّنُ بشغفها بالحياة.

مرّ الأسبوعُ الأوّلُ على عجَلٍ، كانت مرام خلاله مأخوذةً بالجوّ الجامعيّ: تدوين محاضرات، التّعرّف إلى زميلات، شراء الكتب والمراجع المطلوبة... متجاهلةً كلّ الوجوه المألوفة والمعروفة التي تُصادفها.

أمّا سيزار فكان مُنشغلًا بكلّ الإجراءات الإلزاميّة لدخول أخته الجامعة الأميركيّة، فضلًا عن انهماكه بتطوير فرع الشّركة، الذي بات، بعد تصفية أعمال والده في الخارجِ، هو الفرع الرّئيسيّ للفروع التي يُخطّطُ والده لفتحها في لبنان والعالم العربيّ.

وعلى الرّغم من انغماسه بهذه المشاغل، كانت له محطّاتٌ يوميّة مع ذكرى تلك الشّيخة التي اقتحمت حياته ذلك الصّباح.

لم يكن يعلم لمَ كانت تنتابه تلك الفكرة المجنونة، بأن يذهب إلى كليّة الفنون ليراها ويقف على أخبارها! إلّا أنّه كان يلجم هذه الرّغبة ويردعُ نفسه عن ذلك كي لا يُحْرجَ في موقفٍ غبيّ، فيما لو سألته: ماذا تفعل هنا؟

ولم يكن يعرف لماذا كان يطلب رقمها، ثمّ يُقفل الخطّ قبل أن يُجيب أحدٌ، خوفًا من إرباكٍ يُصيبه عندما يسمَعُ صوتها... صوتها الذي كان مُختلفًا عبر الهاتف؛ كان مُجَرّدًا من اللّثام، يسقط في الأذنِ كالأغرودة...

وحان ذلك الصّباح الذي استيقظ فيه سيزار وكلّه إصرار على التّفرّغِ لنفسه ولنفسه فقط. وصمّم على الذّهاب إلى كليّة الآداب التي فتحت أبوابها منذ أكثر من أسبوعيْن، ولم يرتَدْها حتّى لإحضار برنامج المُحاضرات.

وبعفويّة تامّة، وجد نفسه يستقلُّ سيّارة عموميّة ويدخل كليّة الآداب من مدخلِ "ليبان بوست"، حيثُ سجّلَ آخر ذكرياته مع "شيخة"...

وولجَ مبنى الكليّة...

صعدَ إلى الطّابق الثّاني حيثُ يتلقّى طلاب السّنة الأولى محاضراتهم.

كانت القاعة مُكتظّة بالحاضرين. الطّلاب يقفون مجموعاتٍ مجموعات، والضّجيج سيّد الموقف.

انتظر برهةً عند الباب حائرًا، ضائعًا...

لم يكن أمامه وسط الضّوضاء سوى الاقتراب من إحداهنّ سائلًا:

- مرحبًا. ما من محاضرات اليوم؟

- بلى. لكنّ الدّكتور متأخّر كالعادة.

- وهل يتأخّر كثيرًا؟

ابتسمت ابتسامة باهتة، ثمّ أجابته:

- قد لا يأتي. يحصل ذلك أحيانًا. ما عليك سوى الانتظار.

ثمّ انصرفت عنه لمتابعة حديث زميلاتها. عندها قرّر سيزار المغادرة. لكن رؤيته الدّفاتر المشلوحةِ على المقاعدِ جذبتهُ إلى الدّاخلِ من جديد.

رفعَ دفترًا ليلقي نظرةً على كميّة المواد التي أخذت في غيابه، فبادره على الفور صوت أنثويّ.

- عُذرًا... لقد سبق وحجزتُ هذا المقعد.

التفت...

وكانت مرام...

انتابتها فوضى عجيبة. ارتبكت... تبعثرت... انفعلت... كادت تنطق باسمه وتُرحّب به... أن تحتفلَ بوجوده... لكنّها ضبطت نفسها بصعوبةٍ وكرّرت قولها:

– سبق وحجزتُ هذا المقعد.

ثمّ أضافت وهي تسحبُ الدّفتر من يده:

– وهذا دفتري.

استوقفه صوتها... عيناها... نظراتها... شيء ما فيها عبث بذاكرته، وراح يُنَقِّبُ عن ملامحِ هذا الوجه المألوف.

عاد صوتها ليعيده إلى رشدِه.

– ستجدُ مقعدًا شاغرًا في الخلف. المقاعد هنا، كما ترى، محجوزة.

– لا أبحثُ عن مقعدٍ. كنت فقط أريد الاطّلاع على عدد المحاضرات التي أُعطيت... إنّه يومي الأوّل في الجامعة.

ثمّ أضاف على الفور:

– أينَ أجدُ برنامج المحاضرات؟

– في "مكتبة النّخبة".

– وأين تقع هذه؟

– هنا، في الأسفل، عند المدخل مباشرة.

– حسنا، سأتدبّرُ أمري. أشكركَ.

وما إن خطا باتّجاه الباب حتّى أحسّت برغبةٍ جامحة لإبقائه. فاستوقفتهُ:

– لحظة، انتظر.

اقتربت منه وهي تسأله:

– أتريد ما فاتك من محاضرات؟

– أتمنّى.

- سأرافقك إلى المكتبة لتصويرها.

كان سيزار يقلّبُ صفحات ذاكرته لعلّه يعثر في ثناياها على وجه هذه الشّابة... وكانت مرام تشكر الله وتحمده لأنّ سيزار لم يعرفها وهي عارية من ثوب الدّين.

وما إن وصلا إلى مدخل المبنى حتّى سبقته مرام بخطوة وهي تُرشده:

- ها هي المكتبة. آه، إنّها مُكتظّة كالعادة. سيطول انتظارنا.

- لا بأس. ننتظر.

نظر إليها بإمعان، وسألها:

- أتعرفينني؟

صبغت الحُمرة وجنتيْها من الانفعال... رفعت حاجبيْها وهزّت رأسها مُنكرة.

- ألم نلتقِ من قبل؟!

ما إن سمعت سؤاله حتّى بدأ قلبها يقرع داخل صدرها ويكاد يشقّه من الاضطراب. إلّا أنّها تماسكت وأجابته جوابًا قاطعًا:

- أبدًا.

- أعتذر. لكنّي أشعرُ بأنّني صادفتكِ من قبل... أين؟ متى؟ لا أعرف...

- يخلق من الشّبه أربعين، كما يقولون.

نظراتها المُرْبَكة كانت تزداد تحرّشًا بذاكرته، إلى أن عثر على طيف تلك الشّيخة الرّاسخة في باله.

ابتسم، وقال لها:

- تذكّرت. تُشبهين فتاة التقيتها مرّةً. أنتِ من الجبل، صح؟
- رغم أنّني حذفتُ حرف القاف من قاموسي، إلّا أنّ لهجتي ما زالت تخدعني وتبوح بهويّتي.
- أنا أيضًا من الجبل. اسمي سيزار.
تذكّرت ذلك الصّباح في سيّارته، حين أبت أن تذكر اسمها، وقال لها عندها: "سأُناديكِ شيخة".
ابتسمت لهذه الذّكرى، وقالت:
- مرام.
غريبٌ أمر القدر كيف يتطاولُ بأنامله ويعبثُ بترسيمة الحياة!
فمن كان يظنُّ أنّ سارة، تلك الشّابّة القابعة على هامش الحياة، المسجونة داخل شجونها، الخاشية حتّى من ارتياد أحلامها، باتت مرام التي تتنفّس ضجيج بيروت، وتُرافق خطى الزّمن؟!
ومن كان يتوقّعُ أنّ الشّاب الذي ألقَتْ بنفسها في سيّارته في ذلك الصّباح مُستنجدة به لتتحرّر من أسرها، سيغدو العاشق المتيّم بها، الذي يأسر قلبها الحرّ ويعلّمها أبجديّة الحبّ؟!
فبعد لقاءاتهما المتكرّرة في الجامعة، باتت مرام محور حياة سيزار ومرامه، وبات سيزار البوصلة التي تُحدّد وجهة أيّامها؛ بحيث صار الأسبوع بأيّامه عندها، مجرّد رحلة انتظار ليوم الأربعاء، موعد حضوره إلى الجامعة.
وهكذا مضت ثلاثة شهور ومرام تعيش متعة ما بعدها متعة: جامعة، محاضرات، أبحاث، صديقات وأصدقاء، فيسبوك، وحوالة ماديّة تشجيعيّة من عماد ابن عمّها، وموعد أسبوعيّ مع

سيزار تتكدّسُ بعده مشاعر حبّهما الصّامت، الذي بقي مغلّفًا بستار المودّة والصّداقة، إلى أن تجرّأ يومًا وقال لها عبر الهاتف:

- صوتكِ نهر رقراق، حين يجري في داخلي تولد أزمنة من الفرح وال...

وقبل أن يُكمل عبارته، أقفلت الخطّ. أقفلته خوفًا أم وَجَلًا؟... لا تدري!

عاد وطلبها على الفور:

- لِمَ أقفلتِ الخطّ؟

صمتت برهة وأجابت:

- أخفتني سيزار.

- ماذا لو سمعتِ الكلمة الأخيرة؟

- وما كانت؟

- والحبّ.

- تُخيفني حقًّا سيزار!

فقال مُمازحًا:

- سأُرعبكِ في المرّة القادمة.

كانا يلتقيان بلهفة وشوق... يتحدّثان في كلّ شيء إلّا في ما يتعلّق بمشاعرهما.. ربّما لأنّ الكلمات تذوي وتمّحي عندما يكون الحبّ طاهرًا عظيمًا!

لقد أحبّها سيزار حبًّا مزدوجًا لم يألفه من قبل؛ هام بكلّ ما فيها من وجْدٍ وسِحْرٍ وعفويّة وغموض، وعَشِقَ فيها ظلّ تلك الشّيخة القاطن في ذاكرته.

وأحبّته مرام حبًّا أسطوريًّا موشّحًا بالخوف؛ حبًا انصهرت فيه كلّ تلك الأحاسيس والمشاعر التي أثلجها ثوب الدّين، فأحدثت طوفانًا عجيبًا من العشق...

"ألف بنت بتتمنّاك"... "رح جوزك ستّ ستّها"... "شو الله خلقها وكسر القالب"؟...

عبارات وعبارات كانت ترميها والدة رشاد في وجهه كلّما رأته متوحّدًا في غرفته، مستأنسًا لعزلته، بعد أن عزلته سارة من حياتها.

بمَ يُجيبُ أمّه الحَانِقة عليه لأنّه رجلٌ يرزحُ تحت عواطفه ويستسلم لمشاعره تجاه امرأة؟

أيقول لها، أمّي لا تستائي منّي بل خافي عليّ لأنّني ما عدتُ ملك نفسي منذ أن سكنتني سارة واستحوذت على روحي؟

كيف لها أن تفهم حبّه لسارة؟

كيف لها أن تفهم أنّ سارة ليست فتاة ككلّ الفتيات بالنّسبة إليه. إنّها الأنثى التي فَتَنَتْهُ يوم كانت تتفلّتْ من عمر الطّفولة متمسّكة بأذيال الشّباب.

كيف لها أن تفهم أنّ هذا الرّجل الذي تلومه، هو ذلك اليانع الذي أحبّ ضفيرة سارة الشّقراء الطّويلة، وعشق ثوبها المدرسيّ، وتاه في دنيا عينيْها الفريدتيْن؟

كيف لها أن تفهم أنّ سارة أول من جعل لقلبه خفقات مسموعة ولمشاعره صوتًا صارخًا؟

كيف لها أن تفهم أنّ حبّه لسارة الذي وُلِدَ صغيرًا، نما مع الزّمن

وأوْرَقَ، فبات الأمل والحلم وحكايا أسطوريّة يحيكها في لياليه المجنونة؟

كيف لها أن تفهم أنّ عشقه لسارة بات بعضًا منه، فكيف له أن يتخلّى عن بعضه؟

لذا كان يكتفي بأن يُجيبها:

- لن أتزوّج غيرها، ولن تكون لسواي.

جوابه هذا لم يكن يشعل غضب والديه فحسب، بل كان يقلقهما على صحّته النّفسيّة والجسديّة. لكنّهما ما توقّعا يومًا أن يصل به تمسّكه بسارة إلى حدّ التّخلّي عن كلّ ما يربطه بالقرية، إلى أن تفاجآ، ظهر يومٍ، بدخوله إلى البيت وهو يحمل كيسًا في يده. فبادرته أمّه على الفور:

- ألم يكفكَ زادك ابني؟

- لم آخذه معي. وضعته في البرّاد.

فسأله والده بقلق:

- هل من مشكلة في معمل الحجارة؟

- لم أذهب إلى المعمل اليوم. ألم تلحظ أنّني استقلّيتُ السيّارة بدلًا من الشّاحنة؟

- بلى. لكنّني افترضت أنّك لا تحتاج إليها!

أضاف وهو يومئ له للجلوس بقربه.

- أخبرنا، ما الذي حصل؟ وإلى أين ذهبت؟

جلس رشاد بعد أن وضع الكيس على الطّاولة أمامه، وهو ينظر إليهما نظرات تُنذرُ بحدوث ما لا يُرضيهما.

رمقته أمّه بنظرة ترقّب، وسألته:

- ماذا تحمل في الكيس؟

فتح رشاد الكيس وأفرغه فوق الطّاولة، فإذا أمامه كَومةٌ من النّقود.

أسرعتِ والدته وأغلقت الباب، بينما جحظ والده عينيْه وصرخ في وجهه:

- من أين لك هذا المبلغ؟!

- من المصرف.

- قرض؟!

- رهنتُ بيتي.

- ولِمَ رهنتهُ؟! لماذا لم تقل لي إنّك في مأزق، لكنت مددتُكَ بما تحتاج إليه؟!

أجابه رشاد وهو يُشير إلى النّقود:

- هذا ما أحتاج إليه، ولا قدرة لك عليه.

- ولِمَ تُريد مبلغًا كبيرًا كهذا؟!

- سأشتري محلًا في بيروت، وسأحاول أن أجد مسكنًا في محيط كليّة الآداب؛ سأزيل العقبات التي تُبعدني عن سارة.

كلامه صعق والديْه...

والدته كاد يُغشى عليها. راحت تضرب فخذيْها بكفّيْها وهي تولول:

- يا مصيبتنا، يامصيبتنا...

أمّا والده، فقد تحوّل إلى بركان من الغضب، وراح يقذف

الكلام الجارح في وجهه.

- ترهنُ بيتكَ وتُقفل باب رزقك من أجل فتاة لا تسأل عنك ولا ترد على سؤالك؟! من أجل فتاة رمتك خلفها بلا أسفٍ ولا خجل؟! هل جننت؟ كيف تفعل بنفسك ذلك؟ أين كرامتك؟

- هي لم ترمِني أبي. هي انصرفت عنّي من أجل الجامعة.

- أنت إمّا غبيّ، إمّا كاذب... لو كانت تُريدكَ لانصرفت من أجلك عن الدّنيا كلّها. لقد كَلَّ هاتفك من طلبها ولم تُكلّف نفسها مرّة بالرّدّ عليه.

- ربّما خالتها أحلام لم تُخبرها بأمر اتّصالاتي.

- استيقظ من غفوتكَ هذه وابحث عن مستقبلك مع غيرها. ستّ سنوات وأنت تلحق بها وهي تعدو هاربة منك.

- كفى أبي، كفى. ألا تفهم أنّ لا مستقبل لي من دونها؟

طأطأ رشاد رأسه وأضاف بلهجة أقلّ حدّة:

- سأضعُ وكيلًا على معمل الحجارة وسيسير بما تيسّر في غيابي. ولا تخافا على بيتي، سأُسدّد الدّفعات للمصرف في مواعيدها، من إنتاج محل الخرضوات الذي سأفتحه في بيروت.

سألته أمّه:

- وإن لم يردّ عليك المحلّ بالمال الكافي لتسديد الدّين، ستخسر بيتك؟

- لا تكوني متشائمة. لن أفتح المحلّ بشكل عشوائيّ. سأبحث عن نقطة ملائمة، والاتّكال على الله.

وصار رشاد يُغادرُ القرية مع كلّ فجر نزولًا إلى بيروت، بحثًا

عن مكان مناسب يُقيم فيه مشروعه.

كم كان يحسد بيروت لأنّ سارة اختارتها وتخلّت عنه.

كم كان يحسد بيروت لأنّها تتقاسم مع حبيبته شمسًا وقمرًا، وتسكنها ليلًا ونهارًا.

كم كان يحسد بيروت لأنّ أنفاس سارة تتغلغل في جسدها، ولغة عينيْها الآسرتيْن تُحاكي أصغر أجزائها.

كم كان يحسدُ بيروت لأنّ سارة تنام في فراشها وتلتحف نجومها وتصافح فجرها.

هو الّذي كان يمقُتُ زحمة العاصمة وضجيجيها، بات يستشعر، فور بلوغه عتبتها، سعادة فائقة تنتشله من كآبته، لأنّه في المكان الّذي يحتوي حبيبته... لأنّه يتنشّق الهواء الّذي تعبّه سارة ملء رئتيْها... لأنّه في المكان الّذي سيبني فيه أحلامًا جديدة تجاور أحلام سارة التي لا تنتهي.

بمجرّد أن يجول في خاطره أنّه وسارة موجودان تحت سماء واحدة، كان يتسم ويبدأ جولته في بيروت بشغفٍ متأبّطًا حلمه المدلّل؛ أن يجتمع مع حبيبته في بيت واحدٍ ليعيش العمر عمريْن: عمره وعمر سيّدة أحلامه ومُنية جسده.

هذا هو الحبّ. يسطو على القلب ويستوطن الفكر، ويستعبد الروح، ويصادر الأحلام، ويصبح الغاية والهدف وكلّ الآمال.

ففي الوقت الّذي كان فيه رشاد يجول بيروت متنقّلًا من سمسارٍ إلى آخر، كانت مرام، المُنسحبة من ثوب سارة، تجول ميادين السّعادة: تدرس، ترسم وتعشق بكلّ ما خزّنته من مشاعر، وتقبل

على الحياة لتمتصّ نسغها لحظة بلحظة.

ومضت الشّهور بعد أن عثر رشاد على محلّ ملائم لمشروعه، كان خلالها منكبًا بكلّ ما يملك من حماسة على ترتيب المحلّ وتجهيزه وملئه بالبضاعة. وعندما بدأ العمل فيه، انصرف للبحث عن سكنٍ، فعثر على شقّة هرمة في منطقة وطى المصيطبة. اضطّر، بعد البحث المضني، على القبول بها، وباشر على الفور العمل على إصلاحها وتزويقها حتّى تليق بسارة.

وبينما كان رشاد منهمكًا بالعمل في المحلّ وبترتيب الشّقة، كان الحبّ بين مرام وسيزار قد بدأ يتعرّى من الأوشحة الملقاة عليه، ليصبح صريحًا واضحًا ووطيدًا.

كانت مرام، التي فشلت في الاحتماء من حبّها لسيزار، تُطبق على ماضيها وتتسلّح بالغموض والصّمت، وتحاول مقاومة حبّها الجارف له. أمّا سيزار، فقد عشقها حتّى الوله، وتاه في صمتها وغموضها اللّذيْن جعلا لها أطيافًا آسرة. فباتت مرام حبّه الغالي وسَفَرَه إلى داخل أعماقه؛ هذا السّفر الّذي جعله يُنقّبُ عن كنوز قلمه، فتفيض منه مشاعر تُغرق مرام في قصائد حبّ شغوف تائه بين العفّة والرّغبات.

اعتاد سيزار أن يتثاءب شعرًا مع كلّ فجر...

واعتادت مرام أن يوقظها "الواتس أب" على رسالة منه تُزيدها تعلّقًا به.

ذات صباحٍ، كتب لها:

- مرامي... ستبقين أنثاي الوحيدة... ولن أسمح لأنثى غيركِ

أن تطرق باب مشاعري. فما رأيكِ؟

اغتبطت وردّت كالعادة بوجهٍ باسمٍ.

فكتب يقول:

- ارسلي ولو كلمة لتزيدي أحاسيسي توهّجًا.

أجابته برسالة خالية إلّا من ثلاث نقاط.

- سئمتُ حبّكِ الأخرس. أعرف أنّ صدركِ يضجُّ بحبّكِ لي، لذلك سأعتبر كما يقولون، أنّ الصّمت أبلغ من الكلام أحيانًا. انتظريني اليوم.

كتبت مستغربة:

- اليوم هوالإثنين! موعدنا الأربعاء.

- خطر لي أن تُظلّليني بأهدابكِ هذا الصّباح وأغرقكِ بحبري حتّى المساء. لكن أرجوكِ، أنا اليوم في أقصى حالات ضعفي، لذا احميني من بحر عينيْكِ، واحرسي أحلامي بكِ؛ هذه الأحلام التي ملأت قصائدي.

قهقت فرحًا وأرسلت له وجهًا باسمًا.

فكتب:

- سيأتي يوم وتبوحين بجنون. سنخرجُ اليوم معًا.

- مستحيل.

- أنتظر لحظةً نكون فيها معًا على شاطئ جميل ويدي تلتفُّ حول خصركِ الرّخاميّ.

- مستحيل.

- لِمَ؟! وما الخطأ في أن أحبّكِ؟!

– قلتُ لك مرارًا وتكرارًا، أيّها المتحرّر، يمكنك أن تُحبّني وأن تراني لكن ضمن حرم الجامعة. قانون بيئتي لا يسمح لي بالخروج مع شابٍّ عاشق مثلك.

– وهل قانون بيئتكِ يمنعكِ أيضًا من أن تُسمعيني كلمة حبّ؟! ما الّذي يُجبركِ على هذا الصّمت؟ اخرجي من هذا الغموض ودعيني أقرأكِ بوضوح، وانعمي عليّ ولو مرّة واحدة بكلمة شوق.

أرسلت له رسالة ناطقة بثلاث نقاط، ووضعت الخلويّ جانبًا لترتدي ملابسها.

خرس هاتفه...

انتظرت دقائق والخلويّ مصرٌّ على صمته...

ظنّت أنّه حتمًا استاء منها. فأسرعت لتكتب أيّ كلمة تعيده إليها وما إن حملت الخلويّ حتّى أعلن "الواتس أب" عن وصول رسالةٍ.

فتحتها فإذا هي صورة لقصيدة...

أهواكِ، وما عاد القلب يحتمل
حبًّا،
عشقًا،
وهيامًا
خلع عنّي الرّجل الشّرقيّ،
وجعلني أبوح بما أختزن،
من وجد،
من شغفٍ،
وتوقٍ مجنونٍ

إلى روح أشعلت روحي
وخلف ورود حبّها تستتر...
أحبّيني،
خذيني،
امتلكيني،
سطّريني بريشتك،
قلبًا يتأرجح بحبال الشّمسِ،
يتهادى فوق ساعديكِ،
يعتكفُ بين يديكِ،
يلثم كفّيْك،
ويُنشدُ أسطورة في الحبّ،
بطلها رجل مختلف...

- قصيدتكَ أثارت ريشتي، وها هي تدعو أناملي لتراقصها على إيقاع الحبّ...

- ها أنتِ تنطقين ببلاغة الشّعراء.

- لِمَ لا؟! ألم يقل أفلاطون: إنّ كلّ إنسان يصبح شاعرًا إذا لامس الحبّ قلبه؟

- وتعترفين؟!... أخيرًا تعترفين... أريد المزيد المزيد من هذا الكلام يا ظالمة.

أرسلت له وجهًا عابسًا. فكتب على الفور.

- حسنًا سأكتفي بذلك. لكن أخبريني، لِمَ لم تدخلي كليّة الفنون؟

- لأنّ القدر أراد أن يجمعني بك يا غبيّ.

- تعرفين، قبل أن ألقاكِ تعرّفتُ إلى شابّة لها عيناكِ وتعشق الرّسم مثلكِ.

كانت تودُّ أن تقول له: أنا هي سيزار... أنا تلك الشّابّة التي أنقذتها من براثن الظّلم ذلك الصّباح.

لكنّها لم تجرؤ. فأرسلت له وجهًا باسمًا مع كلمة "انتظرك".

صحيح كما يُقال: "إنّ النّدم هو الإبصار الذي يأتي متأخرًا".

فها هي سهى، والدة سيزار، تنتظر إطلالة الفجر بعد ليل طويل أمضته في محاسبة نفسها، فتنفض عنها الغطاء منتفضة على روحها، عاصية قرارًا اتّخذته منذ أكثر من عشرين عامًا.

ها هي اليوم، تستيقظ على ندم، بعد أن أُنْهِكَ صبرها وذبل. فإذا بها تحترق أسفًا على زمن فوّتته بعيدًا عن ابنة أختها.

ها هي تُبصر فداحة ما اقترفته؛ أبعدتْ نفسها عن أختها الوحيدة بعد أن خطفها "سميح"، وحجبتْ حزنها عن ضريحها بعد أن اختطفها الموت.

إنّها خطيئة! لا بل جريمة بحقّ عواطفها ومشاعرها والإنسانة الكامنة في داخلها.

وكيف لا تكون جريمة، وثلاث عشرة سنة مضت دون أن تروي بدمعة واحدة التّراب الّذي يحضن توأم روحها؟

كيف لا تكون جريمة، وثلاث عشرة سنة ولّت وهي لا تعلم أين ترقدُ من كانت عندها أغلى النّاس؟

أكان ذلك حزنًا على أختها أم نقمة على ما فعلته؟

لم تكن سهى تدرك كَنْهَ ما تشعر به. كلّ ما تعرفه، في تلك اللحظة، أنّها تُشفق على نفسها بعد أن جَلَدَتْها بالحزن الصّامت، وجعلتها تعيش الأوقات خارج نفسها، لا بل خارج إرادتها.

قرّرت سهى أن تفتحَ في ذلك اليوم صفحة جديدة، أن تُشرّع بابًا أوصدته لسنوات طوال؛ ستفرغ حزن السّنين فوق ضريح شقيقتها، وستعوّض السّنوات الماضية القاحلة، الخالية من صغيرة أختها، بأن تجعل صدرها وحضنها وبيتها ميدانًا فسيحًا لها.

صحيح أنّ هناك أشخاصًا يشكّلون بعضًا منّا، لا يمكن إلاّ أن نزرعهم في ثنايا العمر.

لذا، انطلقت سهى في ذلك الصّباح في سيّارة أُجرة إلى الجبل، قاصدةً الشّيخ أبي محمود، الّذي أمضى اللّيل برفقة حمّى قويّة لم تُغادره إلّا عند الفجر.

أبو محمود الّذي كان مضرب مثلٍ في تفوّقه على سنواته السّبعين، وفي صلابة جسده التي قهرت عمرًا من التّعب في كروم الفاكهة والزّيتون، صار بعد زواج ابنه عماد من أميركيّة وبعد هروب سارة من البيت، خيالًا هزيلًا يَصعبُ عليه تخطّي عتبة الدّار.

إنّه الغضب الذي اسْتَعَر في داخله وتأجّج إثر عجزه عن الاقتصاص من ابنه الكافر، كما يسمّيه، ومن ابنة أخيه الجاحدة، كما يسمّيها. غضبه هذا أبقى جراحه مفتوحة تنزف حسرة وحقدًا وخجلًا من محيطه الدّينيّ، وحوّل دمه إلى سمٍّ يسري في أعضائه ويصيبها بالتّلفِ، ممّا جعله نزيل السّرير طوال شهور الخريف والشّتاء.

استيقظ أبو محمود ذلك الصّباح، بعد الحمى اللّيليّة التي أصابته، سَئِمًا ضجرًا.

نادى شقيقته زاهية وطلب منها أن تفتح الخزانة وتُخرج منها ظرفًا فيه مبلغ من المال، وقال لها:

- أرسلي هذا المبلغ إلى تلك الجْاحدة. إنّه مردود كرم والدها.

- هل أرسله مع وفيق؟ فهو ينقل طلّاب الجامعة كلّ صباح إلى بيروت، وهو رجل أمين.

- تصرّفي... لا شأن لي بذلك. كلّ ما يعنيني هو التّخلّص من مال تلك الجاحدة.

ثمّ نهض من فراشه بصعوبة، وطلب من زوجته أن تُساعده على ارتداء عباءته ليجلس على المصطبة، علّه يطرد ما يسكنه من سأم.

وما إن جلس على كرسيّه في الجهة المُشرفة على الطّريق، حتّى رأى سيّارة الأجرة الّتي تقلّ سهى، تدخل الطّريق المؤدّي إليهم.

التفت إلى زوجته وسألها باستغراب:

- هل تنتظرين أحدًا؟

- أبدًا! لعلّها زاهية تنتظر زائرًا.

- ناديها.

لحظات وكانت السّيّارة أمام المنزل، وأبو محمود وزوجته وأخته ينتظرون من سيترجّلُ منها.

نزلت سهى ترتدي فستانًا أسود يزيد بهاءها وقارًا.

رمت الصّباح عليهم، فردّت زاهية مُرحّبة.

تقدّمت سهى وصعدت الدّرجات الخمس وصولًا إلى المصطبة. ثمّ رسمت ابتسامة باهتة وهي تقول:

- أنا سهى... خالة سارة. ألا تذكرونني؟

نظر إليها أبو محمود نظرة تُنذر بحدوث إعصار، وقال:

- أذكركِ. ماذا تُريدين؟

- ألا تدعونني للجلوس؟

ارتبكت زاهية وهي تقدّم لها كرسيًّا:

- تفضّلي... تفضّلي... أهلًا وسهلًا.

جلست سهى. وبعد لحظات من تبادل النّظرات بصمتٍ، قالت:

- جئتُ لأرى سارة.

قال لها أبو محمود بنبرة قاسية:

- بعد عشرين سنة؟ ألم تتأخّري؟!

اتّشح وجهها بالإنكسار وهي تُجيبه:

- تأخّرتُ... تأخّرتُ كثيرًا... لكنّني جئتُ الآن وكلّي أمل أن تطوي سارة صفحة الماضي كما طويتها أنا.

- لكنّني أنا لم أطوها.

وأضافَ بنبرة عالية:

- الآن يا سيّدة، لم يعد زيّنا عائقًا أمامكم للتّعرّف إلينا؟! ما الّذي استجدّ لكي تأتي اليوم؟!

- أنتَ تعرف أنّ الزّيّ لم يكن السّبب الفعليّ لقطيعتنا، إنّما الطّريقة التي سلكها "سميح" للزّواج من أختي؛ لقد غرّر بها وهي بعد مراهقة على مقاعد الدّراسة.

- غير صحيح. تذكّري كيف تصرّفتِ يوم أتيتِ ورأيتها ترتدي ثوب الدّين. أنتِ تبرّأتِ منها منذ ذلك اليوم. وسميح، يا سيّدة، لم يُغرّر بها، بل هي أرادته وذهبت معه طوعًا.

- تبرّأت منها بسبب فعلتها التي كانت السّبب في مرض والدي وموته.

- وموتها كان السّبب في رحيل سميح وخسارتنا له.

- ولِمَ نقلّب الماضي؟ الماضي ولّى وجميعنا عوقبنا...

قاطعتها زاهية قائلة:

- سارة الوحيدة التي عوقبت وعلى فعل لم ترتكبه.

ثمّ أضافت بحرقة:

- ماذا نقول لسارة؟ خالتكِ التي نبذتكِ منذ تكوّنتِ في رحم أمّكِ، تُريد رؤيتكِ اليوم؟ أنقول لها إنّ أمّكِ التي أخبرتكِ أنّ أهلها ماتوا جميعهم في الحرب، كانت تكذبُ عليكِ؟ وكيف سيكون ردّ فعلها عندما تعلم أنّ لها أهلًا نكروها ورموها كخرقة بالية طيلة عشرين سنة؟... مسكينة طفلتي!

لملمت سهى دموعها وقالت بإصرار:

- أريدُ رؤيتها.

أجابها أبو محمود:

- ليس لكِ ابنة أخت عندنا. يبدو أنها ورثت منكم القدرة العجيبة على التّخلّي.

وانسحب إلى الدّاخل متّكئًا إلى زوجته لتسند جسده الضّعيف والمرتعد حنقًا. بينما وقفت سهى كتائهة وسط الظّلام، تحاول

التّبصّر في كلام أبي محمود. ثمّ التفتت إلى زاهية تسألها باستغراب:

- ماذا يقصد بقوله؟

- سارة تركت البيت ورمتنا خلفها.

- وأين تُقيم الآن؟

- عند قريب لنا، في بيروت. ربّما تذكرينه، إنّه يوسف الذي قادكِ إلينا منذ عشرين عامًا.

- أذكره. أريد عنوانه لو سمحتِ.

- لا أعرف في أية منطقة يقطن. لكنّني أعرف رقم هاتفه. سجّليه.

سحبت سهى الخلويّ من حقيبة يدها، وسجّلت الرقم، ثمّ سألتها.

- أمتأكّدة من صحّته؟

- بالطّبع. فأنا أطلبها كلّ يوم. لا يطيب لي العيش دون أن أسمع صوتها. إنّها ابنتي؛ تربّت في هذا الحضن.

مشتْ سهى باتّجاه السّيّارة، ثمّ توقّفت بعد عدّة خطوات منها، والتفتت إلى زاهية تسألها ومسحة من الخجل ترتدي صوتها:

- أين قبر أختي؟

هزّت زاهية رأسها باستهزاء راسمة ابتسامة ساخرة على شفتيْها، وقالت:

- خلف البيت. هناك في آخر الكرم. لكن لا أعتقد أنّ أبا محمود سيستسيغُ وقوفكِ، من دون غطاء للرَأس، فوق رؤوس أمواتنا.

- لا شأن له بأية حلّة أزور قبر أختي. لن أُحرم منها مرّتيْن؛ في حياتها وفي مماتها.

- أنتِ حرمْتِ نفسكِ منها ولم يُجبرك أحدٌ على ذلك.

ثمّ أردفت تقول بنبرة ملؤها الشّجن:

- لو تدرين كم كانت تحتاج إليكم، وكم عادَتْ نفسها بسبب معاداتكم لها.

* * *

عادت سهى إلى بيروت بجسد هامد وروح ذابلة وصوت مخنوق، بعد وقفة مُضنية فوق قبر شقيقتها. لكنّها عادت، في الوقت نفسه ظافرة، تحمل في يدها ما يُبرّد حزنها ويبرّئ خطيئتها ويقهر ندمها؛ إنّه رقم هاتف سارة.

أوَتْ تلك اللّيلة إلى فراشها وكلّها أمل أن تستقبل الغد بلقاء ابنة أختها. هذا اللّقاء الّذي تترقّبه وتخشاه وترسم له كلّ لحظة ألف صورة وصورة، أرّقها طوال اللّيل وكاد ينجح في محو إصرارها عليه.

القلق والأرق من هذا اللّقاء المُنتظر كانا قاسمًا مشتركًا، في تلك اللّيلة، بين سهى وزاهية؛ زاهية الّتي وضعت وديعة له في هاتف سهى، وهي تعلم أنّ هذه الوديعة ليست سوى قنبلة موقوتة ستتفجّر، مع كلمة "ألو"، وستتطاير شظايا الماضي وتكوي قلب سارة وتهشّم ذاكرتها. لذا أسرعت زاهية، مع إطلالة الصّباح، إلى الهاتف لتطلب يوسف.

مكالمة زاهية، في ذلك الوقت المُبكر، أقلق الجميع، خاصّة بعد تخلّفها عن الاتّصال بهم ليلًا كعادتها.

- عمّتي؟

- أجل حبيبتي، كيف حالكِ؟

- قلقتُ عليكِ كثيرًا. لِمَ لم تَتَّصلي بي أمس، كعادتكِ؟

- تعذّر عليّ ذلك، لأنّ عمّك كان متوّعكًا وطلبنا له الطّبيب.

- وكيف حاله الآن؟

- أفضل حبيبتي. أعطيني عمّكِ يوسف، أريدُ مكالمته.

- هل من خبر سيىء عمّتي؟

- لا حبيبتي، اطمئنّي. هاتي عمّك.

وطلبت زاهية من يوسف إنجاز "المهمّة المستحيلة".

وكيف لا تكون مهمّة مستحيلة وهو عليه أن يقول لمرام جهارًا، إنّ سارة التي غادرتِ زيّها ونمط عيشها، عليكِ أن تُغادري أيضًا ذاكرتها لأنّها تمتلك ذكرياتٍ مشوّهةً.

وكيف لا تكون مهمّة مستحيلة وعليه أن يمسحَ صفحاتٍ من ذاكرة سارة ويملأها بقصصٍ وصورٍ أخرى، ويزوّدها بماضٍ لا ينتمي إلى الماضي الذّي سمعت أقاصيصه من أمّها وعمّتها؟

كم كان بحاجة إلى الشّجاعة ليطمس ماضيها الكاذب بحقيقة مؤلمة!

كم كان يحتاج إلى اللّباقة ليغرس الحقيقة في ماضيها، دون أن يشوّه صورة أشخاصٍ التصقوا بروحها: أمّها وعمّتها!

وإن مَلكَ الشّجاعة واللّباقة، فمن أين يأتي بصكّ براءة لماضٍ

جان استيقظ للتّو بشخص خالتها؟!

كانت حقًّا مهمّة مستحيلة ولا مفرّ له من إنجازها.

من هنا، بدأ مهمّته بالإتّصال بمركز عمله لطلب إجازة يوم كامل. ثمّ حمل مرام وأحلام بسيّارته إلى مكان تعشقه مرام: إلى البحر. وجلسوا في مقهى يُحاذي الموج. ومع أوّل رشفة قهوة، قال لها:

- اسمعي يا ابنتي. الإنسان كهذا البحر يختزن تحت رؤية جليّة عالمًا من الأسرار.

- أشعر، عمّي، أنّ ما ستخبرني به أخطر من ركوب هذا اليم!

- ركوب البحر خطير على من لا يُتقن التّجذيف، لكنّكِ تتقنيه ببراعة، مرام.

- تعبتُ وأنا أجذّف في بحر الحياة حتّى وصلت إلى الشّاطئ، فلا تُعيدني إلى عبابه.

- ستبقين بأمان على الشّاطئ الذي اخترته. ولكن ما سأبوح به الآن، سيتعبكِ ويؤلمك ويشوّه جانبًا من ذكرياتكِ، وبالمقابل سيمنحكِ سندًا جديدًا تتكئين عليه في الحياة.

- أرجوك عمّي، دعْكَ من المقدّمات المُتعبة والتي تُزيدني قلقًا. ماذا أخبرتكَ عمّتي؟

- اسمعي مرام. حين توفّيت والدتكِ، كنتِ صغيرة وفي عمر يعجز عن فهم ماضيها. لذا، كانت تقول لكِ عندما تسألينها عن أهلها، أنّهم ماتوا في الحرب. لكنّهم في الواقع كانوا أحياءً وقد جعلتهم هي أمواتًا بعد حرب الجفاء التي شنّوها عليها.

تزاحمت الدّموع في عينيْها وهي تقول بصوت خجول مُتردّد:
- وهل ماضي أمّي مُخجل؟
- لا، أمّكِ كانت امرأة شريفة.
- ما القصّة إذًا؟ أخبرني عمّي.
- كانت والدتكِ مُراهقة فاتنة ومدلّلة من والدها وأختها الوحيدة بعد وفاة والدتها. وكان جدّكِ رجلًا ميسورًا، لجأ إلى قريتنا هربًا من بيروت إثر الاجتياح الإسرائيليّ للبنان. أحبّت أمّكِ وخالتكِ القرية واعتادتا عليها، فاتّخذها جدّكِ مصيفًا دائمًا لسنوات، ممّا أتاح لشابّ من "عين العريش" التّعرّف إلى خالتكِ والزّواج منها، الأمر الذي جعل جدّكِ متمسّكًا بالإقامة في قريتنا كي يبقى على مقربة من خالتكِ التي تُقيم مع زوجها في "عين العريش".

وكانت والدتكِ تلميذة ضعيفة في مادّة الرّياضيّات. فقصد جدّكِ مدير المدرسة في القرية يطلب منه أستاذًا لهذه المادّة لدعم أمّكِ بدروس خصوصيّة. ووقع الاختيار على والدكِ؛ فهو شابّ متديّن، رزين، خلوق، ويُمكن لجدّكِ أن يُدخله بيته ويأتمنه على ابنته.

وصار والدكِ يتردّد بشكل يوميٍّ إلى بيت جدّكِ، ولا ندري ماذا كان يحصل خلال تلك اللّقاءات بينهما، لكنّنا جميعنا عرفنا نتيجتها، وهو ذهاب أمّكِ "خطيفة" مع والدكِ.

أهل والدتكِ قالوا إنّ سميح استغلّ براءتها وصغر سنّها وغرّر بها وهي بعد صغيرة، لم تألف العشق والغرام. وأهل والدكِ قالوا

إنّها أغوته بجمالها حتّى بات غير قادر على وضع حدّ لعلاقته بها إلّا بالزّواج منها.

- ولماذا الخطيفة؟! لِمَ لم يطلبها من والدها؟!

- الخطيفة حصلت لأنّ أمّكِ كانت تعلم مسبقًا أنّ جدّكِ، الّذي أنكر ذاته ونذر نفسه ليربّيها وأختها أحسن تربية، ما كان ليرضى بزواجها في سنٍّ مُبكرة وقبل أن تنال الشّهادة الثّانويّة على الأقل. ولأنّ والدكِ كان يعلم أنّ جدّكِ الرّجل العلمانيّ، الذي لا تتّفقُ أفكاره ومسلك الإيمان الذي يسلكه أهل والدكِ، لن يرضى به زوجًا لابنته المتحرّرة. لذا، قاما معًا بذلك العمل الجنونيّ الّذي هزّ القرية وهدّ جدّكِ وكان سببًا في تدهور صحّته وإضعاف قلبه حتّى بات عاجزًا عن النّبض.

- هل كانت أمّي المجرمة أم كان جدّي المكابر؟

- لم تكن أمّكِ مجرمة لأنّها ما توقّعت هذه النّتيجة لفعلتها. ظنّت أنّها ستضع والدها أمام الأمر الواقع، وسيتصالحان كما يحصل عادة بعد كلّ "خطيفة". وقد سعى كثيرون للصّلح بينهما، لكن جدّكِ أبى الصّلح لأنّ جرحه ممّا فعلته كان أعمق من حزنه عليها. قهره تصرّفها، وذلّه العار الّذي ألحقته به، ولم تهن عليه نفسه التي أهملها لتحقيق الرّفاهيّة لابنتيْه ونسيها في أثناء بحثه عن سعادتهما. لذا، أنكر والدتك ورحل عن القرية بعد رحيلها مع والدكِ، حاملًا في قلبه جرحًا لا يلتئم، جرحًا لم يبرأ منه، ولم يفلح الطّبّ والدّواء في دمله.

- وخالتي؟!

- تمسّكت بداية بموقف جدّك؛ إذ عزّ عليها أن تخونها أختها وقد كانت مخزن أسرارها. ولكن، بعد مرور عدّة شهور، وبينما كان جدّكِ في المستشفى يُحاول الصّمود بعد نوبة قلبيّة، جاءت خالتكِ وطلبت منّي أن أرافقها إلى بيت عمّكِ أبي محمود، لترى أمّكِ، بعد أن لوّعها فراقها. وكنت آنذاك مُقيمًا في القرية. اصطحبتها. كانت تحمل في يدها حقيبة ثياب لوالدتكِ وتحمل في نظراتها أسى لن أرى مثيلًا له ما حييت.

- وبعد؟

- استقبلتها أمّكِ بثوب الدّين الّذي فُرض عليها. صُدمَت، لا بل جُنّتْ، وثارت عليها، وراحت تنثر الثّياب من الحقيبة: فساتين قصيرة وسراويل ومايّوهات... وهي تقذف في وجهها كلامًا جارحًا. ثمّ نزعت المنديل عن رأس أمّك وجرّتها إلى السّيّارة بالقوّة. لكنّ والدتكِ أوقفتها بصوتٍ صارخ: "أختي، أنا حامل... أنا حامل. لقد تأخّرتِ. لا خيارٌ لي الآنَ. أنا مُلزمة على البقاء".

كلامها كان اعترافًا واضحًا بالنّدم، وتصريحًا جليًّا بخيارها... لقد اختارت البقاء لتُنجبكِ وتربّيكِ، لكنّ الموت اختارها قبل أن تشبعي من حضنها.

كانت مرام تستمع وتبكي بصمت إلى أن قال لها يوسف:

- أمّا ما حصل بعد مغادرة خالتك، ذلك اليوم، فأنا أجهله لأنّ أخبارها وأخبار جدّكِ انقطعت عن والدتكِ ولم يفدنا عنهم سوى خبر موت جدّكِ، بعد فترة من الزّمن.

- ومن سيُخبرني إذًا؟
- خالتكِ.
- خالتي؟!
- أجل. لقد زارت أمس عمّكِ أبو محمود تطلب رؤيتك.
- بعد أن تجاوزتُ العشرين سنة!... تريد التّعرّف إليّ بعد كلّ هذا العمر!

التفتت إلى البحر وسبحت في ذكريات الأمس...

هي تُدركُ الآن سبب تلك الدّموع الّتي كانت تتمرّد على صبر أمّها وجَلَدها فتخرج من مُعتقلِها وتنهمر كالطّوفان فوق وجنتيْها.

تذكّرت ذلك الصّباح حين لحقت أمّها إلى الكرم ووجدتها مُتّكئة إلى شجرة ومستسلمة لنوبة حادّة من البكاء. تذكُر جيّدًا كم هالها حزن والدتها وكيف هرعت إليها صارخة:

- ماما، ماما، ما بكِ؟ لماذا تبكين؟!

لملمت أمّها دموعها بطرف منديلها وأجابتها بصوت مخنوق:

- لا عليكِ صغيرتي، أشكو من بعض الألم.

ولا تنسى كيف جثت بقامتها الصّغيرة وهي تقول بصوت يرتعد من الخوف عليها:

- وأين الألم أمّي؟
- هنا في قلبي، حبيبتي.
- قلبكِ يؤلمكِ باستمرار، لِمَ لا تذهبين إلى الطّبيب؟!

لم تعد تذكر في هذه اللحظات سوى ذراعي أمّها الممدودتين نحوها وصوتها يقول: "إذا ضممتُكِ سيخفّ ألمي. تعالي، أنتِ

دوائي الوحيد يا عمري".

ارتمت حينها فوق صدر أمّها وضمّتها بقوّة ظنًّا منها أنّها تمتصّ ألمها وتُريح منه جسدها الهزيل. لم تكن تعلم آنذاك، أنّ ذلك الألم كان قد نُحت في صدر أمّها وبات ظلًّا لروحها الّتي تتنفّس حسرة وتنطق دمعًا.

انتشلها صوت عمّها يوسف من هذه الذّكرى المؤلمة.

- خالتكِ ستتّصل بكِ. لقد أخذت رقم هاتفنا من عمّتكِ. ستتعرّفين إليها وستحبّينها؛ "الدمّ ما بيقلب مَي".

انتابتها فوضى عجيبة! فهل تجيب على اتّصالها، أم تُعْرِضُ عنهُ؟

ماذا تفعل الآن وهي تقف حائرة ضائعة ولا تدري إن كان عليها أن تُلبّي أنين قلبها المتلهّف للقاء خالتها، أو تُجاري حكم عقلها الّذي يأبى ذلك؟

ماذا تفعل؟ هل تُمزّق من قصّة حياتها صفحة هجر خالتها لها وترميها خلف الذّاكرة كما رمت كلّ الماضي من قبل؟ هل تتجاهل دموع والدتها وحسرتها وتهرع إلى خالتها صارخة: خالتي، يا لحمي ودمي، يا طيب أمي وطيف وجهها الممحو من ذاكرتي، تغلغلي في حنايا روحي الموجوعة واشبعيني من شميم حضنكِ؟... أم تعرض عنها وتحاكي لغتها التي خاطبتها بها خالتها منذ أكثر من عشرين عامًا؟

كان لا بدّ لها من قرار يحدّد مصير صلة القربى هذه، الّتي دفنتها خالتها منذ تكوّنت هي في رحم أمّها، مُتغافلة عمّا ستحمله هذه

الصّلة من عواطف تكون سندًا لها على مواجهة العواصف التي تواكب الأيّام على امتداد العمر.

وهل يستيقظ الأموات؟ سؤال تردّد في داخلها وجعلها تنطق على الفور:

- الأموات لا يستيقظون عمّي.

- ماذا تقصدين مرام؟

- خالتي وأدت صلة القربى بيني وبينها من قبل أن أولد. فكيف أحيي علاقة ميتة، علاقة ابتلعها الزّمن؟

ثمّ التفتت إلى أحلام التي كانت تُصغي لما يدور بينهما بصمت، وقالت:

- إذا اتّصلت تلك، الّتي لا أعرف حتّى اسمها، قولي لها إنّني خلعتُ ثوب الماضي بكلّ ما يعشّش فيه من حكايا وأسى. قولي لها إنّ سارة لم تعد موجودة، فلا تبحث عن سراب.

- لكنّها تبقى شقيقة أمّكِ، شئتِ أم أبيتِ.

أجابت بصوتٍ شجيّ:

- كما تمكّنتُ من العيش والاستمرار في الحياة من دون أمّي، أستطيع أن أحيا بلا شقيقتها التي لا أعرف لها شكلًا ولا اسمًا، ولا يربطني بها سوى دموع أمّي...

- لا تكوني قاسية إلى هذا الحدّ مرام، إنّها خالتكِ!

ألقت برأسها فوق كتف أحلام وهي تقول:

- أنتِ خالتي، وخالتي الوحيدة التي أورثتي أمّي محبّتها والشّعور بالرّاحة إلى جانبها.

احتضنتها أحلام طاردة كلّ الخوف الذي انتابها؛ الخوف من أن تخطف سهى مرام من حضنها بعد أن أسكت حضورها في حياتها تلك الحاجة إلى ابنة انتظرت أن تلدها يومًا، وبقيت حلمًا في خاطرها بعد أن داهمها عمر الجدب.

إنّ مَن يصْبو إلى غاية في الحياة، لا يأبه للحواجز والسّدود التي تعترض سبيله، لأنّه قادرٌ على ابتداع الطّريق البديل الذي يوصله إلى مرامه.

فها هم: رشاد، سهى، وسيزار يطوّعون المستحيل لإيجاد درب توصلهم إلى سارة، أو بالأحرى إلى مرام الّتي باتت مرامهم الوحيد في هذه الحياة.

فرشاد الذي عاش عمرًا منتظرًا نظرة شوق ولهفة من عيني سارة، بات ينتظر بشغف الانتهاء من تأهيل الشّقة التي استأجرها في بيروت، ظنًا منه أنّها ستُعيد سارة إلى قبضته من جديد.

أمّا سهى الّتي فشلت في اقتحام حياة سارة، فقادتها حاجتها لإطفاء نار النّدم، إلى جعل الاتّصال ببيت يوسف عادة شبه يوميّة، غير آبهة بمّا تسمعه من رفض، معتقدة أن إلحاحها سيُليّن قلب ابنة أختها المتحجّر، فتستجيب؛ أوَليست المياه بالتّكرار تحفر الصّخر؟

أمّا سيزار الّذي حيّرته مرام بغموضها، وأتعبته بحبّها الصّامت، وأرهقته برسائلها الخرساء، فلم يجد مدخلًا له إلى عالم أنوثتها المُبهم إلّا من خلال التّفكير بالارتباط بها.

كثيرًا ما سأل سيزار نفسه: كيف يفكّر بالإرتباط بفتاة لا يعرف عنها سوى أنّها طالبة في كليّة الآداب وتنتمي إلى بيئة درزيّة مُحافظة؟

لكن، هل الحبّ يحتاج إلى هويّة؟

وهل الحبّ يعترف بهويّة؟

كيف يتساءل عن هويّتها وقد صار صدره موطنها وعمرها من عمر وَلَهه بها؟!

كيف يتساءل عن هويّتها بعد أن باتت للعمر وعدًا، وللحلم لقاءً، وللقلم مدادًا؟!

كيف يتساءل عن هويّتها بعد أن سكنت أعماقه وغدت "أناه"؟!

هكذا، أصبحت مرام غاية سيزار في الحياة. ومن يملك غاية في الحياة مَلَك الغاية ومَلَك الحياة.

لذا، كان يسعى لتطويق مرام بعشقه وتحطيم حصون صمتها، وإدخالها إلى عالم أحلامه لتملأه بضجيج أنوثتها.

فما إن تثاءب الفجرُ حتّى أرسل إليها عبر "الواتس أب":

- أغرقتني في ظمأ لا يعرفُ الارتواء. أريد رؤيتكِ اليوم، ولا مفرّ لكِ من ذلك.

- اليوم عامر بالمحاضرات!

- لا يهمنّي أيّتها المجتهدة.

- نحن على أبواب الامتحانات، والمحاضرات ستكون مفاتيح الأسئلة. لا يمكنني التّغيّب.

- الأمر لا يعنيني... مشتاق إليكِ مرام.

- كيف لا يعنيك؟! ألا تريد أن تعرف التّرجيحات؟

- عدّلتُ رأيي واعتزلتُ هذا الاختصاص.

- أنت جدّيّ؟!

– أجل. لقد انتسبتُ إلى هذه الكليّة لأتعلّم قواعد اللغة العربيّة، فإذا بهم يُعلّمون فيها كلّ شيء إلّا قواعد اللغة! دعينا من هذا الأمر. تعالي إليّ وأسكتي شوقي إليكِ وأغرقيني بشلّالات أنوثتكِ الدّافقة.

– ...

– أعشق حتّى صمتكِ لأنّه جزء منكِ. موافقة على لقائنا اليوم؟

– نلتقي غدًا.

– حسنًا بشرط.

– وما هو؟

– أن نخرجَ معًا.

– أعترض. شرطك هذا مرفوض.

– سأحدّثكِ في موضوع يحتاج إلى هدوء بعيدًا عن ضجيج الجامعة وتطفّل الزّملاء.

– ...

– أرجوكِ مرام يجب أن أراكِ خارج الجامعة. أريد أن أشعر أنّكِ لي وحدي ولا شريك لي في اهتماماتك.

– ...

– أنا بحاجة ملحاحة للإنفراد بكِ لأنّ ما سأقوله لكِ سيفتح بابًا جديدًا لعلاقتنا.

– ...

– حسنًا، اعتصمي بصمتكِ هذا.

وصمت...

لم تكترث لصمته؛ فصمته عادة لا يطول.

انتظرت أن يُاغتها بعد قليل برسالة. لكن عبثًا، بقي سيزار متمسّكًا بالصّمت.

مضى ذلك اليوم، وغده، وحان الأربعاء، موعد لقائهما المُعتاد، وسيزار مستمّر في تحدّي صمتها بصمت موجع.

عذّبتها قسوته. وآلمها غيابه. وشكّت في صدق حبّه لها. وتاهت عن درب يُعيده إليها. وعن أيّ درب تبحثُ وهي لا تملك من سكّة وصال سوى رقم هاتفه الغارق في الصّمت؟

أتطلبه وتقول له:

"أحبّك سيزار، فلا تدع لعبة الصّمت تقتل ما بيننا؟

أحبّك حبًّا أسطوريًّا، حبًّا شغوفًا أعمق من كلمات الشّوق، وأوسع من مساحات الصّمت التي رسمتها بيننا؟".

أتطلبه وتقول له:

"إنّي ألوذ بالصّمت لأنّ الحبّ في بيئتي ممنوع، والعواطف مُضطهدة، والمشاعر مقموعة!

إنّي ألوذ بالصّمت لأنّ الحبّ في عالمي عبارة عن ورقة رسميّة موقّعة من شهود!

إنّي ألوذ بالصّمت لأنّني نزعتُ ثوبي، ومحوتُ اسمي، وعجزتُ عن استئصال ما عشّش منهما في ذهني!

إنّي ألوذ بالصّمت لأنّني خائفة من أن أكون حكاية من حكايات شابّ قادم من بلادٍ الحبّ فيها لا يعترفُ بالعفّة!".

وبينما هي تائهة في البحث عن سكّة تُعيدها إليه، وإذ بهاتفها يُعلن عن رسالة.

فتحت "الواتس أب"... إنّه هو!
فتحت الرّسالة فإذا هي صورة لقصيدة... فقرأت:

تقولينَ أحبّكَ،
وترسمين الحواجز والمسافات.
تجولين العالم،
وتحبسين باتّجاهي الخطوات.
يا امرأة، صدّعت قلبي بصخبكِ
وأشعلتِ في صدري التّنهيدات.
بعثرتِ روحي،
وجعلتني أشلاء في شتات.
لملميني حبيبتي،
بلسميني بأناملكِ،
التي لو لامستني لأضرمت فيّ الشّهوات...
وخذي قلبي مركبة،
طوفي في صدري،
فعوالمكِ في داخلي
أوسع البحار وأعمق المحيطات...
واكويني بنظراتكِ،
بعد هذا الكي ما عاد يهمّني،
إن كان الموت أو الحياة...
بتُّ قدّيسًا
متعبّدًا لتلك المرايا،

ملاكًا
صفّاه حبّكِ من كلّ الخطايا،
وعاشقًا لامرأة
تسكنها آلاف العاشقات...

صحيح ما تقوله غادة السّمان: "كلّ الّذين يكتمون عواطفهم بإتقان، ينهمرون كالسّيل إذا باحوا".

فها هي مرام للمرّة الأولى لم تستطع ردع رغبتها الجامحة في البوح. فراحت أصابعها تكتب دون إذن من صمتها:

وجودك في حياتي يمدّني بقوّة استثنائيّة، ويجعلني أكثر عشقًا للحياة. فلا تهجرني مرّة أخرى كي لا تذبل رغبتي بالعيش، وكي لا نفقد أيّامًا من عمر حبّنا.

– وأخيرًا حبّكِ الأخرس ينطق، مرام!

– اشتقت إليكَ.

– لو تدرين ماذا تفعل كلماتكِ بي. ها أنتِ بكلمتيْن اثنتيْن أحدثتِ في داخلي طوفانًا من المشاعر، وفجّرتِ بركانًا من الشّوق إليكِ.

أرسلت له وجهًا باسمًا، وكتبت:

– نلتقي اليوم في "الجندول". لا تحتجّ، لقد اخترت هذا المكان لأنّه على بُعد خطوات من الجامعة.

– موافق. أنتظركِ عند العاشرة والنّصف. لا تتأخّري.

– لن أتأخّر؛ فالوقتُ الّذي أمضيه معك أنفاسه قصيرة، وأنا

مُتمسّكة بكلّ لحظة من لحظاته. أموت شوقًا إليك.

– لو لامسكِ شيء من شوقي إليكِ لمسّك الجنون حبيبتي.

– ليتني أستطيع أن أطوي اليوم... لا قدرة لي على انتظار الغد.

– أنتظره وكلّ ما فيّ ينبض حبًّا لكِ ويئنُّ لغيابكِ... إلى اللّقاء في الغد حبيبتي.

وحان الغد...

ثمّة لقاءات لها فعل السّحر، تقلّنا إلى عالم مُختلف خارج حدود العالم، وتُخاطب أصغر أجزاء الرّوح بآلاف المشاعر، سيّما إذا دعتنا إليها بعد رحلة من الصّمت.

لذا، تركت مرام قاعة المحاضرات لحظة اقتراب عقارب السّاعة من العاشرة والرّبع، متّجهةً إلى موعد استثنائيّ خارج زمن المواعيد ومكانها...

هرعتْ إليه دَهشةً من أحاسيس طارئة عليها؛ فهي ما كانت تعي ما معنى أن يتوجّع الإنسان حبًّا، وما كانت تُدركُ أنّ الحبّ حين يُداهمنا، يُحيي كلّ تلك الأحاسيس التي غفلنا عنها أو سقطت منّا سهوًا على درب النّضوج.

هرعت إليه مُتحدّية نفسها والنّاس وكلّ تلك التّعاليم التي تتلْمَذَت عليها مشاعرها.

هرعت إليه ببراءة طفلة وعبثيّة مُراهقة، وبكلّ إصرار العاشقات النّاضجات على التّمسّك بحبّهنّ.

هرعت إليه لتشكو له ظلم الأمس وتتوسّد معه حلم الغد.

هرعت إليه جاهلة ما يتربّص بها في الخارج.

وما إن انتهت من هبوط الدّرج متوجّهة نحو مدخل المبنى، حتّى تراءى لها الماضي رابضًا في الخارج بكلّ جراحه ومآسيه.

إنّه رشاد!...

كان يقف مُستندًا إلى سيّارته، قُبالة المدخل، مُنتظرًا خروجها.

جحافل من الخوف هاجمتها... فاحتمت، على الفور، بالجدار الممسك ببوّابة المبنى.

وقفت خلف الجدار مسلوبة القوى؛ تلاشت روحها، تعرّق جسدها، وهاجم أطرافها صقيع رهيب، فلم تعد تقوى على حمل مقدار الهلع الذي سرى في أوصالها. فألقت بجسدها النّحيل على الحائط علّها تستمدّ منه شيئًا من صلابته فتتماسك لتتخطّى هذا الموقف.

ما الّذي جاء به إلى الكليّة؟ ماذا يريد بعد؟ وكيف سيتصرّف إن رآها؟...

وغيرها وغيرها من الأسئلة التي عبثت بأعصابها، وراكمت قلقها، وأجّجت اضطرابها، ورمتها في فوضى عجيبة، وهي تُحاول أن تسترق النّظر إلى الخارج علّها تقرأ في وجه رشاد ما يُفصح عن نواياه.

كانت الدّقائق تمرّ، وصبرها ينوء أمام زحف عقارب السّاعة باتّجاه اللّقاء.

ماذا تفعل، وما من مخرج لها سوى هذا الّذي يقبع رشاد قبالته مُتفحّصًا الطّلّاب الجالسين والعابرين؟

أتبقى هكذا متوارية، وتسمح له بان يُصادر منها أحلى أوقات

العمر، بعد أن اغتصب ستَّ سنوات من عمرها؟

وتبقى هكذا مستترة بهذا الجدار خوفًا ممّن أخرس أُنثاها، وأذبل روحها، وجعلها تخاف الغد وتخشاه؟

لم تُهن عليها نفسها القابعة خلف الجدار مُزنّرة بالخوف. ولم تأنس بطيف "سارة" الّذي سطا على كيانها لحظة رأت رشاد.

وبينما هي غارقة في حيرة وارتباكٍ قاتليْنِ، تذكّرت أنّها تقيم في جسد مرام، وأنّ ذلك القابع في الخارج ينتظر أن تخرج من البوّابة خطيبتُه الشّيخة ذات العينيْن الزّرقاويْن. فتنتفّست جرأتها من جديد وحثّتها على المُغامرة بالخروج من مخبئها.

قذفت بخصلات شعرها القصير على خدّيْها، ووضعت نظّارتها السّوداء على عيْنيْها كي لا تَشِيا بها، وانخرطت في مجموعة من الطّالبات الخارجات.

خرجت برفقتهنّ، ومشت متوجّهةً إلى اليسار، دون أن تنتبه إليهنّ يتّجهن ناحية اليمين. وإذا بها تجد نفسها وحدها أمام رشاد، عزلاء إلّا من الخوف والاضطراب.

عبرتْ أمامه بسكون وهي تصبّ نظرها إلى الأمام...

تجاوزته... ثمّ راحت تحثُّ الخطى. ومع كلّ خطوة كان يعتريها إحساس رهيب، بأنّ الماضي بظلامه وظلمه يمشي خلفها، وبأنّ يدي عمّها أبي محمود تُطاردانها وتحاولان الإطباق على عنقها.

خارت قواها... ضاق صدرها... تعبت أنفاسها... حتّى أوشكت على الاختناق. إلّا أنّها واصلت المشي وهي تجرّ قدميْها

جرًّا حتّى بلغت كورنيش المزرعة.

توقّفت... التفتت بحذر لتجد رشاداً مُسمّرًا مكانه، مُنتظرًا بشوق مَن ذهبت مع الماضي بلا عودة.

ها هي تنجح في الهروب، من جديد، من سارة ومن رشاد ومن ماضٍ لا يزال مُلتصقًا بظلّها، ومصرًّا على الخروج من شقوق الأمس ليبسط نفسه على حاضرها ومستقبلها.

تنفّست ملء رئتيْها وكأنّها وليد يلتقط أنفاس الحياة، ثمّ شهقت باكية.

كانت في تلك اللحظة، كمولود جديد بحاجة إلى حضنٍ يأنس إليه ويرشف منه الدّفء والحنان والأمان. ولكن، من أين لها ذلك، وما من أحد يستطيع أن يمنحها الدّفء والحنان والأمان معًا سوى حضنيْن اثنيْن لا بديل منهما؛ الحضن الأوّل اقتنصه الموت، والآخر نأى بنفسه عن حياتها؟

كم كانت في تلك اللّحظة بحاجة إلى أن تصرخ أمام الملأ، وبملء جوارحها: "أبي، أين أنتَ؟ أحتاج إليكَ. تعال واسندني أرجوك".

لملمت دموعها ومشت وحرمانها إلى من ستبوح له يومًا بكلّ تفاصيل الماضي، وتطوي معه صفحة الأحزان.

ووصلت إلى "الجندول".

دخلت، وكان بانتظارها...

نظرت إلى ساعة يدها، فإذا بها تُشير إلى العاشرة والنّصف تمامًا.

تقدّمت باتّجاه سيزار الّذي رمى الجريدة من يده ووقف ليستقبلها بوجه تفيض ملامحه شوقًا.

قالت له بصوت مخنوق:

- سبقتني!

- أنا هنا منذ ساعة تقريبًا.

- ولِمَ أتيتَ باكرًا؟!

- لم أحتمل الانتظار خارج مكان اللّقاء. هنا يسهلُ قتل اللّحظات الّتي تُرهقني في غيابكِ...

جلست وهي تبتسم، ثم رفعت النّظارات عن عينيْها.

- كنتِ تبكيْن؟!

- لا... أبدًا. إنّها الحساسيّة، ليس أكثر.

التفتت إلى الصّحيفة المرميّة جانبًا لتواري عينيْها عن نظراته ولتحجب كذبها عن شكِّه، وقرأت المانشيت: "قوى ١٤ آذار ترفض المشاركة في حكومة ميقاتي مُتخوّفة من أن تكون وسيلة لوضع حزب الله يده على الدّولة ولوقف التّعاون مع المحكمة الدّوليّة المُكلّفة النّظر في اغتيال رفيق الحريري".

هزّت رأسها باستهزاء قائلة:

- بعد خمسة أشهر من فراغ حكوميّ، تولد حكومة من لون واحد لتولّد صراعًا جديدًا.

ثمّ أضافت بعصبيّة وهي تقلب الصّحيفة وتضعها جانبًا:

- أعْتقْنا من هذه الأخبار.

- ما بكِ مرام؟! تبدينَ مُربكة، مُحبطة، ودامعة العينيْن!

إحساسها بأنّ رشاداً على مسافة خطوات من حبّها أطبقَ على أنفاسها من جديد. فوقفت وهي تقول بحسم:

- أخرجني من هذا المكان الضّيّق. أكاد أختنق.

- مُنيتي أن نَخرجَ معًا. لكن، هل من مكان مُحدّد تريدين الذّهاب إليه؟

- لا. خذني إلى أي مكان. أبعدني عن هنا.

وركبا السّيّارة...

سار بها باتّجاه البحر، وتوجّه شمالًا...

دهشتهما من موقف جديد لحبّهما فرد مساحة من الصّمت، قطعها سيزار بسؤالها:

- لم تسأليني إلى أيّ مكان أسير بكِ؟

- خذني إلى حيثما شئت، لا آبه لذلك ما دمت أخذتني من نفسي منذ التقيتك.

- ما هذا البوح مرام؟! أأنا في حلم؟! آه، كم أخاف أن أكون في حلم وأستيقظ منه على الماضي الفارغ من دونك.

فقالت بنبرة مسكونة بالخوف:

- أرجوك، أنا هاربة من الماضي، فلا تُعدني إليه.

- يُزعجني كتمانكِ ويُخيفني غموض ماضيكِ. لماذا لا تبوحين بما يُثقلكِ، فما عُدنا غريبيْن عن بعضنا؟!

- ...

- أحترم صمتكِ مرام. لكن أريدكِ أن تعلمي أنّني مستقبلكِ وأرفض أيّ ماضٍ يُبعدكِ عنّي.

أمسكَ بيدها واعتصرها بكفّه بقوّة.
ارتجفت، وسرى الصّقيع في أناملها. فسألها:
– تخافين منّي؟
سحبت يدها برفق وهي تقول:
– إنّها المرّة الأولى التي ألامس فيها الحبّ.
فتح يده وقال جازمًا:
– هاتِ يدكِ لأدفئها.
تلامستَ كفَّاهماَ...
سرت حرارة العشق في عروقهما...
قال:
– أحبّكِ بجنون. أنا مفتون بكِ، ورغبتي فيكِ تُعذّبني.
صمتت... وكيف تُخفي عنه رغبتها فيه، بعد أن صارت مشاعرها سافرة أمامه؟
فأضاف بلوعة:
– لا تصمتي هكذا. قولي أيّة كلمة تُهدهد ولهي بكِ.
– الكلمات باردة أمام حرارة مشاعري تجاهك... لقد ملكتني سيزار.
فتح الزّجاج وأخرج رأسه من النّافذة وهو يصيح غبطة:
– يا ناس، يا بشر، هذه الجميلة تُحبّني... تُحبّني...
جذبته إلى الدّاخل وهي تصرخ به.
– أجُننت؟ لا تلفت الأنظار إلينا بهذا الشّكل.
قبّل يدها وهو يقول بإلحاح:

- تزوّجيني مرام، تزوّجيني أرجوكِ. أريد أن أسكب عمري في عمرك لنحيا معًا عمرًا واحدًا.

بِمَ تُجيبه، وجوابها سيفتح فوهة البئر العابقة بالأسرار؟

لو أخبرته أنّها تُخفي عنه قصّة تلك الشّيخة التي أقلّها بسيّارته وأواها في شقّته، وكان جسر عبورها إلى خارج أقبية الحزن والوحدة، هل سيبقى على حبّه لها؟

لو عرف أنّ عشقها الأسطوريّ له هو خيانة لرجل آخر، كلّ أوراقها الثّبوتيّة تؤكّد أنّها زوجته، هل سيتمسّك بحبّه لها؟

فقالت له بتوسّل:

- عدني سيزار أنّك لن تميلَ عنّي مهما حصل.

رفع يدها برفق وقبّل كفّها بحرارة، ثمّ سألها:

- أتعرفين ما معنى تقبيل الكفّ؟

- لا!

- تقبيل الكفّ هو عهد بين الحبيبيْن بأن يبقيا معًا إلى الأبد. وفي بعض الثّقافات، إذا قبّل الرّجل كفّ المرأة يحسب أنّهما متزوّجان من دون المراسيم.

أخذت يده... حضنتها بيديْها، ثمّ أغرقت شفتيْها في كفّه برفق، وراحت تنشق عطر جلده وتلثمه بدفء وهي مُغمضة العينيْن نشوةً.

طوّقها بذراعه الأيمن وألقى برأسها فوق كتفه.

أنفاسها فوق صدره أثارته... كانت تلامس جلده، تتسلّل من مساماته، وتسري في عروقه لتزيد نيران حبّه اتّقادًا. كانت أنفاسها

لاهثة، دافئة، تشي برغبات جسدها البكر، وبراكين شهواتها المخبوءة.

كيف يُقاوم هذه الأنوثة الدّافقة الّتي تُغرقه بفيضها؟

- رغبتي فيكِ مرام تُعذّبني.

قالها وانحرف باتّجاه منطقة أدما. ذهب في طريق فرعيّ، ثمّ ركن السّيّارة في مكان خالٍ.

حاولت مرام أن تُقصي جسدها المُثار عن جسده. فجذبها سيزار إليه أكثر. رفع ذقنها حتّى صارت المسافة بين شفاههما قصيرة كأنفاسهما اللاهثة.

اقترب من شفتيها أكثر...

لامسهما بشفتيه المشتعلتيْن رغبة، وراح يملأ صدره من أنفاسها المتسارعة...

قبّلها برقّة، بحبّ، ثمّ بشغف جامح.

إنّها قبلتها الأولى...

للمرّة الأولى تلامس الحبّ، تعشقه، تحسّه...

للمرّة الأولى تتعرّف رغباتها، تتذوّقها، تحياها...

للمرّة الأولى يتمرّد جسدها البتول ويخضع لسطوة الحبّ...

انسحب الحبّ من شفتيْها وراح يدثّر عنقها بأنفاسه.

داهمها خوف رهيب مدوٍّ، وتاهت بين المشتهى والحرام، بعد أن وجدت جسدها البكر الّذي لم يرتحل يومًا في مجاهل الحبّ، مطوّقًا بحبّ سيزار الملتهب، ومحاصرًا بكلّ مساحات الإثم والخطيئة.

انتشلت نفسها من بين ذراعيْه ودفعته عنها وهي تقول بنفور:
- يكفي، يكفي سيزار، يكفي...
نظر سيزار إلى جسدها المُرتعد وإلى الدّموع المُحتبسة في عينيْها، وقال لها برويّة:
- لا تخافي مرام. ما كنت لأتمادى أكثر. ما أريده هو إسكات مشاعري لا إشباعها حبيبتي.
- عندما ينطق الحبّ يُخرِس العقل، ويمحو الحواجز، ويستبيح القيم، ويُجيز لنفسه المعقول وغير المعقول.
- لستِ ممّن يؤخذن في الطّرقات، مرام. أنتِ حبيبتي، وسيكون لحبّنا بيته وغرفته وسريره حيث سألقّنك الحبّ جرعة جرعة ليتخطّى جسدكِ هذا الخوف، وليعبّر بصراحة عمّا تتوق إليه روحكِ. فالجسد حبيبتي هو لغة الرّوح، فإن لم ينطق عاشت في دوّامة الصّمت.
كان سيزار يحدّثها وهي منصرفة عنه بلملمة ذاتها الّتي تبعثرت بعد لحظة حبّ.
كان كلّ ما يهمّها، بعد ما حدث بينهما، أن تخرج من ذلك المكان الّذي حرّك بسكونه كلّ مشاعرها وحرّضها على الحبّ. فقالت له على الفور:
- أعدني إلى بيروت.
- لنتناول الغداء معًا.
- لا، أرجوك أعدني إلى بيروت.
صحيح ما يُقال: "إذا كان الضّمير لا يمنعنا من ارتكاب الخطيئة

فهو حتمًا يحرمنا التّلذّذ بها".

فها هي مرام تعود إلى بيروت مُثقلة بالشّعور بالخطيئة. فهي وإن خلعت ثوب الدّين، فإن الدّين بقي حيًّا في داخلها، وروحها لا تزال مطبوعة بمفهوم الحلال والحرام.

الانتظار كم يُطيلُ أنفاس الوقت!

كان رشاد يقف أمام مدخل الجامعة مسكونًا بالقلق والتّرقّب. يرصدُ الوقت بدقائقه وثوانيه...

انتظر، وانتظر طويلًا، ولكن عبثًا، فالكليّة خلت من روّادها وهو لا يزال قابعًا وخيبته على رصيف الانتظار، ممتلئًا بالهواجس.

هو متأكّد كلّ التّأكّد من أنّها تدرس اللّغة العربيّة في كليّة الآداب؛ فأين تكون إذًا إن لم تكن في الجامعة؟ هل هي مريضة ويستحيل عليها الحضور؟ أم أنّ هناك مخرجًا آخر للمبنى، فرّت منه عندما رأته ينتظرها، خوفًا من أن يعيدها قسرًا إلى قبضة عمّها؟

الاحتمال الأخير قاده إلى بيت يوسف. كان مُصرًا على أن يراها ليطرد خوفها منه، وليوضح لها سبب ذهابه إلى الجامعة، ظنًّا منه أنّ خبر انتقاله إلى بيروت وتخلّيه عن كلّ شيء من أجلها، سيصوّب اتّجاه مشاعرها، وستقبل به زوجًا بملء إرادتها. لم يكن يعلم أنّ حياته معها كالأرجوحة، كلّما قذف بها إلى الأمام عادت به بالمقدار نفسه إلى الوراء.

دخوله إلى بيت يوسف أربك الجميع ووضعهم وجهًا لوجه أمام الأمر الواقع: لا بدّ من أن تواجهه مرام.

ودخلت مرام غرفة الاستقبال.

ظهورها أمامه سافرة، مُجرّدة من ثوب الدّين، صعقه...

جحظ عينيْه... خرس للحظات، ثمّ ثار في وجهها:
- ماذا ترتدين سارة؟! أين شعركِ؟! أين منديلكِ؟! وثوبكِ؟! كيف تتجرّئين؟! كيف؟! أنا فقط من يحقّ له أن يراكِ هكذا! أنا فقط من ينزع ثوبكِ ويعبث بشعركِ...
قاطعته بصوتٍ صارخٍ:
- سارة ماتت، ماتت، ماتت، هل فهمت رشاد؟ ماتت هناك في كهفكم. أنا الآن مرام، سيّدة نفسي ولا سلطة لك عليّ. فهمت؟
- أتيتُ لأخبركِ أنّني هدرتُ تعب السّنين، وهجرتُ أغلى النّاس من أجلك. فأراكِ خلعتِ زيّكِ وتخلّيتِ عن ربّكِ! كافرة ومرتدّة عن الدّين.
- ومن طلب منك أن تفعل ذلك؟! وما علاقتكَ أنتَ بي إن كنتُ متديّنة أم كافرة؟!
- أنا زوجكِ سارة وأنا من يقرّر مساركِ.
ضحكت باستهزاء وقالت:
- مررت قرب الجامعة من أمامك ولم تعرفني! كيف تتزوّج من فتاة لا تعرفها؟!
ثمّ أضافت بحقدٍ:
- فُرضتَ عليّ رشاد، وأنتَ تعلم أنّني لا أريدكَ. هل تتزوّج من امرأة ترفضك وتمقتك؟!
- لا تهمّني مشاعركِ ما دمت أحبّكِ وأريدكِ.
ثمّ تقدّم منها وقبض بيده على ذراعها بقوّة وهو ينفثُ تهديده:
- أستطيع الآن أن أسحبكِ قسرًا إلى بيتي؛ فأنتِ زوجتي شرعًا.

صاح به يوسف بصوت مدوٍّ:
- إنزع يدك عنها، وإيّاك أن تُسيء إليها حتّى بكلمة.
رمى ذراعها من قبضته وهو يقول:
- لا تظنّي أنّني سأدعكِ تفلتين من قبضتي.
- أنتَ تحلم رشاد. ما من قوّة في العالم تُجبرني على العيش معك.
هزّ رأسه متوعّدًا:
- سترين.
- وماذا ستفعل رشاد؟ ها، قل، ماذا ستفعل؟ لن تفلح في إجباري على ما أكره.
ردّ باستهزاء:
- أأنتِ واثقة؟ سأرفع دعوى الطّاعة، وستأتين إليّ بالقانون، وسترتدين ثوب الدّين، شئتِ أم أبيتِ.
وخرج رشاد، رغم خيبته، منتصرًا، بعد أن نجح في زرع الهلع في قلب مرام.
فقالت باضطراب مُفرط، وكأنّ هيستيريا استولت عليها:
- عمّي، وهل يجرؤ على ذلك؟ هل يجرؤ ويرفع دعوى الطّاعة؟ وهل يُجيز له القانون إجباري على العيش معه رغمًا عنّي؟ وأيّ قانون هذا الّذي يُجبر المرأة على العيش مع رجل لا تُريده؟!
وأخذتها نوبة من البكاء والصّراخ:
- كيف أتحرّر منه عمّي؟ قل لي، كيف يمكنني أن أتخلّص من هذا الرّجل؟ كيف؟ كيف؟ أرجوك عمّي أعتقني منه.

رمى يوسف بنفسه، المُثقلة بالهمّ، فوق المقعد وهو يرجوها بصوته المُتعب:

- اهدئي أرجوكِ، اهدئي.

- وكيف أهدأ عمّي؟! ألم تسمع ما قاله؟!

- لن يفلح في ذلك.

- حقًا! كيف؟

- سترفعين دعوى تفريق.

- وهل هذه تلغي دعوى الطّاعة؟

- ستؤجّل النّظر فيها ريثما يتمّ البتّ بدعو التّفريق. ستمنحنا وقتًا لنجد حلًا.

دخلت أحلام، التي كانت قد أبعدت ابنها عند قدوم رشاد. وقالت:

- يوسف، عليك الاستعانة بمحامٍ قدير لنضمن كسب الدّعوى.

عندها، هرعت مرام إلى غرفتها وأحضرت النّقود التي وصلتها من إنتاج الكرم، وسوار الذّهب الذي ورثته عن أمّها وألقت بها بين يدي يوسف وهي تقول:

- خذها عمّي وكلّف محاميًا قديرًا. لا أريد مالًا ولا ذهبًا، كلّ ما أريده هو الخلاص من رشاد.

أمضت مرام اللّيل جالسة تترقّب إطلالة الصّباح للذّهاب إلى المحامي الذّي كلّمه عمّها. لم تكن تعلم أنّ المحامي الذي تُعلّق آمالها عليه، ستذهب إليه بقضيّة واضحة وتعود من مكتبه بلغزٍ صعب ومُجبرة على إيجاد حلّ له.

فالمحامي لا يملك سببًا وجيهًا يُقنع المحكمة بوجوب التّفريق، خاصّة أنّ رشاد يؤمّن لها المسكن المستقلّ وحسن المُعاملة واليسر المادّي، لذا ليس أمامها سوى التّصدّي لقضيّة الطّاعة، وذلك من خلال الطّعن بشرعيّة صداقها المكتوب على رشاد. وعدم شرعيّة الصّداق لا يُثبته سوى طعن آخر بوصاية عمّها أبي محمود عليها، لأنّ والدها على قيد الحياة. وهذا، طبعًا، يُلزِمها بأن تجد والدها قبل أن تُعيّن المحكمة موعد الجلسة الأولى. أو عليها، على الأقل، أن تعثر له على عنوان أو أي أثر لوجوده، وإلا فالقضيّة خاسرة، والطّاعة لرشاد إلزاميّة.

فها هي مرام بعد أن ظنّت أنّها نجحت في الهروب من الماضي، واعتقدت أنّ الحياة استوت واستقامت وفق أحلامها، تجد نفسها أمام رحلة هروب شاقّة ملأى بالتّحدّيات؛ تحدّيات لا بدّ من مواجهتها ومحاربتها بكل ما لديها من طاقة وجلد وإصرار، كي تَأمن خلاصها من الماضي وتكفل طيّه في خبايا النّسيان.

كان عليها، وهي التي تنوء تحت أعباء الهمّ والقلق، أن تدرس وتثابر لتفوز بحلم النّجاح في سنتها الجامعيّة الأولى محقّقة خطوة رابحة على درب المستقبل، دون أن تشي بها بطاقة امتحاناتها وصورة الشّيخة المرفقة بها واسم سارة المدوّن عليها. وكان عليها وهي تحمل كلّ هذا الخوف من الغد، أن تمتصّ كلّ ما يتسرّب من القرية من كلام وأقاويل حول ارتدادها عن الدّين ورفضها لرشاد. وأن تحتمل غضب عمّتها، ووصيّة عمّها أبي محمود الذي يُصارع الموت، بألا يكون لها وقفة على جنازته، وأن تصمد عاطفتها أمام اتّصالات خالتها التي لا تهدأ، وأن تحجب كلّ ذلك عن سيزار.

بعد خمسة عشر يومًا من الامتحانات المضنية، بذلت مرام خلالها جهدًا ما بعده جهد، جاءت دعوة سيزار للزّملاء المقرّبين منهما إلى حفل عشاء بمناسبة نهاية العام الجامعيّ، فرصةً لتلتقط أنفاسها استعدادًا للمواجهة على الجبهة الأخرى: دعوى التّفريق.

ولم يكن ليوسف بعدما عانته مرام من تعب في الامتحانات، وأمام ما ينتظرها من صراع في المحكمة مع رشاد، إلّا الموافقة على ذهابها إلى الحفل، شرط أن يوصلها بنفسه ويُعيدها بنفسه.

فتحت مرام خزانة أحلام وراحت تبحث بين الفساتين التي لم تقوَ أحلام على التّخلّي عنها، رغم أنّها لم تعد تصلح لجسمها الذي سمن بعد ولادة بهاء، واختارت فستانًا من الدّانتيل الأصفر المبطّن بقماش حريريّ أبيض، ينسدل عن الكتفيْن بكمّين واسعيْن حتّى المرفقيْن، وينحصر تحت الصّدر بشريط أبيض لمّاع ليتفلّت من تحته واسعًا فضفاضًا حتّى الرّكبتيْن. فبدت فيه كفراشة ربيعيّة اكتست بلون الشّروق.

وعند الثّامنة والنّصف تمامًا كانت مرام تقف في مدخل المبنى الذي يسكن فيه سيزار.

كم هو بارع الزّمان في تغيير الأحوال!

فعمّها يوسف الذي ينتظر في سيّارته دخولها المصعد ليطمئن عليها، أجبرها هاتفه المعطّل، في الماضي القريب، على دخول هذا

المبنى وحيدة، قلقة، تائهة، خائفة ممّا سيحمله لها الغد الضّبابيّ. وبعد أن اجتازت كلّ تلك المشاعر، تدخله اليوم بروح جديدة، وثوب جديد، واسم جديد.

صحيح ما يقوله باولو كويلو: "جميل أن تستطيع الالتفات إلى الماضي دون حنين ودون ندم". لكنّ الأجمل من ذلك أن تشعر حين تلتفت إلى الماضي بلذّة الانتصار.

وصلت إلى الشّقّة وقرعت الباب وهي تزهو بنفسها، بثوبها، وبكلّ ما تتوقّعه من فرح؛ فهي للمرّة الأولى تتأنّق وتدخل إلى حفل يضمّ زميلات وزملاء.

فتحت لها الخادمة وعلى وجهها ابتسامة تُنبئ بحدث ما...

الشّقّة تبدو هادئة، خالية...

استغربت مرام والتفتت إلى السّاعة لتتأكّد من أنّها لم تُبكر في الحضور.

وقبل أن تهمّ بالسّؤال، أشارت الخادمة إلى الباب الموصود على يمين المدخل.

طرقت مرام الباب ثمّ فتحته.

الغرفة مُعتمة...

التفتت إلى الخلف لتستوضح من الخادمة، وإذ بالأنوار تسطع ويعلو صوت المجتمعين: "Surprise". ثمّ بدأوا يغنّون لها "Happy birthday" في الوقت الذي يُضيء فيه سيزار الشّموع.

وأيّة دهشة اعترتها!

هي نفسها كانت غافلة عن تاريخ ميلادها!

صاحت بهم وهي تُمسك دموعها:
- كيف عرفتم؟!
أشاروا إلى سيزار الّذي أمسك بيدها وقادها إلى قالب الحلوى:
- الفيسبوك، الّذي هجرته منذ بداية الامتحانات، وشى بكِ.
هيّا أطفئي الشّموع.

كم كانت غريبة عليها هذه اللّحظات الّتي لم تتذوّقها يومًا، لأنّها كانت تترأس قائمة الممنوعات في امبراطوريّة عمّها أبي محمود!

اقتربت بوجل من الشّموع وأطفأتها، فَعَلا التّصفيق، وصدحت الموسيقى، فامتلأت الحلبة بالرّاقصين والرّاقصات بينما كانت مرام تقف جانبًا تُعاين كلّ ما حولها لتؤرّخ في ذاكرتها ذلك الحدث الاستثنائيّ.

جذبها سيزار، رغمًا عنها، إلى حلبة الرّقص، لكنّ جسدها الّذي أطاع ثوب الدّين طويلًا أبى أن يُطيع الموسيقى الصّاخبة. فانسحبت من الحلبة وراحت تُقطّع قالب الحلوى وتوزّعه على المحتفلين.

وبعد فترة من الهرج والمرج، أوقف سيزار الموسيقى. فتحلّق الحاضرون حوله صامتين.

عاودت مرامَ تلك الدّهشة، فتساءلت:
- ما الأمر، سيزار؟
فراح الجميع يردّدون دون انقطاع:
- الهديّة، الهديّة...
انحبست أنفاسها.
كان صوت في داخلها يُنبئها بأنّ الهديّة ستكون شيئًا مُختلفًا،

لكنّها ما توقّعت أبدًا أن تكون حلم العمر.

حمل سيزار ظرفًا وبدأ يلوّح به وهو يسألها:

- ماذا تتوقّعين أن يكون داخل هذا الظّرف؟

- لا أدري...

- عليكِ أن تتكهّني.

ضحكت طويلًا وهي تتأمّل الظّرف كطفلة تترقّب بلهفة هديّة عيد ميلادها. ثمّ قالت بخجلٍ:

- وما أدراني سيزار؟ هيّاً افتحه ودعني أرى ما بداخله.

لكنّ سيزار استمرّ بدعابته، فخطفت الظّرف من يده وقرأت ما دوّنه عليه: "منذ ولدتِ في داخلي تغيّرت في الكون مفاهيم كثيرة، حتّى الشّمس باتت تُشرق لغايات أخرى... عيشي لكِ العمر والحياة".

ارتجفت يداها وتسمّرت أصابعها...

صاح بها الجميع:

- افتحيه.

فتحته، وإذ بداخله بطاقة. سحبتها من الظّرف وقرأت:

تتشرّف الفنّانة التّشكيليّة "**مرام**" بدعوتكم لحضور افتتاح معرضها الأوّل بعنوان:

"رحلة هروب"

وذلك في قاعة "**جنّات**" في بيروت.

يوافق يوم الافتتاح الأربعاء ٩ تشرين الثّاني ٢٠١١ من السّاعة الخامسة حتّى التّاسعة مساءً.

ويستمرّ المعرض أيّام الخميس والجمعة والسّبت في
١٠ و١١ و١٢ تشرين الثّاني ٢٠١١.
نتأمّل تشريفكم.

كم من أحلام حسبناها سرابًا فغدت يومًا حقيقة مشعّة تتراقص بين أجفاننا وسعادة تحبو فوق شفاهنا!

وقفت مذهولة أمام البطاقة...

ما توقّعت يومًا أن ترى اسمها في بطاقة دعوة!

ما ظنّت يومًا أنها ستُلامس حلمها ببساطة ودون تحدٍّ!

ما اعتادت يومًا أن تُصافحها الحياة بمنتهى المحبّة!

الدّموع التي هطلت فوق وجنتيها كانت أعمق من أيّة كلمة شكر تقولها.

قبّلت البطاقة وهي تقول:

– لا بدّ من أنّني في غيبوبة حلم من أحلامي.

– أنتِ لا تحلمين مرام. أنّتِ في قلب الواقع. منذ أكثر من شهر ونحن نُحضّر لهذه الهديّة الّتي تستحقّينها. لقد طبعنا ألف نسخة من هذه البطاقة، وسنتكفّل بتوزيعها على الأصدقاء والأقارب والمعارف والإعلاميين، لتضجّ بيروت به. وكنت حريصًا على تسميته "رحلة هروب" لأنّكِ قلتِ لي مرّة إنّ الحياة رحلة فرار وهروب، وإنّكِ تستمتعين كثيرًا في رسم الهروب بمختلف أشكاله: الهروب من البيئة، من الواقع، من الذّات، من الخسارات... أيرضيكِ هذا الاسم؟

– وتسأل؟! لقد منحتموني الخطوة الأولى على درب الأحلام.

لا أعرف كيف أشكركم! إنّ الكلمات كيفما اجتمعت لن تُعبّر عن عظمة ما قدّمتموه لي.

خنقتها دموعها وهي تُضيف:

- أحبّكم.

علت الموسيقى من جديد، وعاد الجميع إلى أجواء الفرح، فاستأذنت مرام سيزارَ لدخول الحمّام وغسل آثار الدّمع عن وجهها.

وبينما هي عائدة من الحمّام، مرّت أمام غرفة الجلوس. فضولها دفعها للدّخول إليها.

دخلتها...

الغرفة لا تزال كما هي: واجهتها الزّجاجيّة، الأضواء المنبعثة من الزّوايا، اللّوحات التي تعتلي الجدران، التّلفاز الّذي يحتلّ بشاشته الكبيرة إحدى زوايا الغرفة...

راحت تتأمّل كلّ تلك الأشياء الموزّعة هنا وهناك، الّتي كانت رفيقتها في أوقاتٍ مسكونة بالقلق والرّعب.

وقبل أن تخرج من الغرفة، لفتتها صورة متوسّطة الحجم، تحتلّ موقعًا قرب التّلفاز. هذه الصّورة لم تكن موجودة حين سكنت الغرفة ليومٍ وليلة!

اقتربتْ من الصّورة.

شيء ما شدّها إليها...

حملتها وراحت تتأمّلها. فيها عروس في ثوب الزّفاف تُطوّق بذراعها صبيّة صغيرة في عمر المراهقة. كانتا تضحكان بعفويّة وكأنّ حادثة مُضحكة وقعت أمامهما.

ملامح تلك المُراهقة تبدو مألوفة؛ كأنّها رأتها من قبل!
حاولت التّمعّن في وجهها الذي ضاعت ملامحه قليلًا مع العينيْن الغائرتيْن من الضّحكة العريضة.
وبينما هي مأخوذة بالصّورة، وإذ بصوتٍ يُفاجئها من الخلف:
- أعجبتكِ؟
انتفضت مرام ووضعت الصّورة مكانها وهي في غاية الارتباك.
في حين أردفت سهى تقول:
- أخفتكِ؟! أعتذر.
- أنا من يجب أن تعتذر. ما كان عليّ تحريك الصّورة من مكانها.
- لا بأس حبيبتي.
كغريبتيْن وقفتا...
كم تسخر منّا الحياة حين تتعرّى من العقبات الّتي نزرعها بأفكارنا على دروبها وتجمعنا بلقاءات الصّدفة!
ها هي سهى تقف، دون أن تدري، على بعد خطوة من ابنة أختها وهي التّائهة عن درب توصلها إليها.
وها هي مرام تقف، دون أن تدري، وجهًا لوجه مع المرأة الّتي تنبذها، وخلفها تقبع صورة والدتها الّتي تستطيع بملامحها أن تُرمّم رسمها المشوّش في ذاكرتها.
فهل هذه الصّدفة التي جمعتهما ستجلو الحقيقة الغائبة عنهما؟
سألتها مرام وهي تتأمّل الصّورة:
- أنتِ العروس في هذه صورة، خالة؟

- أجل.

تنهّدت سهى وتابعت القول:

- أحبّ هذه الصّورة كثيرًا؛ فهي رفيقتي أينما ذهبت.

- ومن تلك الشّابّة الصّغيرة؟

- أُختي، أختي الوحيدة.

- أحسدكِ خالة. لطالما تمنّيتُ أن يكون لي أخت أو أخ.

صمتت سهى قليلًا وقد اتّشح وجهها بمسحة من الحزن، ثم قالت:

- ماتت.

تبعثرت مرام وتاهت حتّى عن كلمة "آسفة" ترمّم بها الموقف.

فأردفت سهى قائلة:

- إنّه القدر.

وإذ بسيزار يدخل في تلك اللّحظة:

- أنتِ هنا مرام؟! تعالي، العيد بانتظارك.

- أنتِ إذًا مرام، صاحبة العيد! العمر الطّويل.

- أشكركِ خالة.

انسحبت مرام برفقة سيزار، وقبل أن يدخلا غرفة الحفل، سألته مرام:

- ما بها والدتك؟ لا تبدو على ما يُرام! هل حفل عيدي ميلادي وضجيجه هما السّبب؟

ضحك سيزار وهو يقول:

- أمّي تعشق الضّيوف. عندما كنّا نتأفّف من زوّارها كانت

تقول لنا دائمًا مقولة جبران: "لولا الضّيوف لكانت البيوت قبورًا".

- ممَّ هي منزعجة إذًا؟

- هناك مشكلة عائليّة.

- والدك السّبب؟

- لا، والدي رجل مُسالم إلى أقصى حدّ. المشكلة تتعلّق بأختها.

- لكنّ أختها متوفّاة!

- سأخبركِ بالموضوع في ما بعد. لندخل.

دخلا.

دقائق معدودة ورنّ خلويّ مرام يُنبئها بقدوم عمّها يوسف.

وهكذا، غادرت مرام الحفل مُخلّفة وراءها جزءًا من الماضي: خالتها وصورة أمّها. وحاملة في يدها جزءًا من المستقبل: بطاقة الدّعوة الحلم.

الفشل يُحبط النّفوس، لكنّه لا يلوي الرّوح التّوّاقة إلى مرام، ولا يطوّع إصرارها.

فها هي سهى، رغم كلّ محاولاتها الفاشلة ووساطاتها الخائبة للاتّصال بسارة، لم ترتدع عن البحث عن طرف خيط يوصلها إلى ابنة أختها. لذا، استغلّت ذلك الصّباح الهادئ برفقة سيزار لتقول له، مع أوّل رشفة من فنجان قهوته:

– سيزار، إذا طلبت منك شيئًا هل تلبّيه؟

– اطلبي يا ستّ الكلّ.

– حاول أنت الاتّصال بابنة خالتك. لعلّك تستطيع شقّ طريقنا إليها.

تأفّف سيزار. فهو الّذي كان ينوي مفاتحتها بشأن حبّه لمرام، فإذا بها تقذف به عند أسوار ابنة خالته المجهولة، حيث تقرع أمّه منذ شهور على أبواب موصودة، دون جدوى.

أجابها بتذمّر:

– أمّي لِمّ تنحنين لها ما دامت إنسانة حاقدة بهذا الشّكل؟

– وأنا كنت لأكثر من عشرين سنة، خالة قاسية، ميّتة القلب.

أضافت وفي صوتها مسحة عذاب:

– في الماضي، كان بعد المسافة يُسكت شوقي لرؤيتها، ولضمّها. إذ لم يكن السبيل إليها سهلًا وأنا في أستراليا. أمّا اليوم،

فأنا على مقربة منها، فكيف لي أن أخرس هذا الصّوت الصّارخ في داخلي ليل نهار؟ هذا الصّوت يُعذّبني ويلتهم قلبي.

– سأحاول. لكن هل تعتقدين أنّها ستستجيب؟ أشكّ في ذلك.

– حاول.

تناول سمّاعة الهاتف وهو يقول:

– هاتي رقمها.

– لقد حفظوا هذا الرقم عن ظهر قلب، فلن تلقى مجيبًا إن طلبتها منه. اطلبها من جهازكِ.

أعطته الرّقم بسرعة كي لا يتوانى عن طلبها.

طلب الأرقام ببلادة وانزعاج. وما إن انتهى من طلبها حتّى بدأ يومض على الشّاشة اسم "شيخة".

نسمة جليديّة سرت في عروقه...

تجمّد للحظات ثم ضغط على الفور على زر "No" لإسكات الجهاز.

غريبة هي الأقدار كيف تحوك لنا لقاءات الصّدفة!

غريب هو الزّمن كيف يرصد حكاياتنا ويجمعنا في لقاءات الصّدفة!

أيعقل أن تكون تلك الشّيخة المجهولة الّتي ارتمت ذلك الصّباح على المقعد الخلفيّ لسيّارته، هي نفسها ابنة خالته الّتي لم يعرف لها يومًا شكلًا ولا صوتًا؟!

أيعقل أن تكون تلك الشّيخة الغريبة التي شغلته بغموضها ليوم وليلة، هي نفسها ابنة خالته الّتي توصد أبواب حياتها في وجوههم؟!

إنّه حقًّا يعيش أسطورة!

أيبوح لأمّه بكلّ ذلك؟ أمّه الّتي صاحت به مستغربة تصرّفه:

- لماذا عدلت عن الاتّصال؟! لقد وعدتني سيزار!

أجابها وهو يُداري ارتباكه:

- الاتّصال لن يُجدي. من الأفضل أن أراها وجهًا لوجه وأضع حدًّا لهذه اللّعبة.

- ربما أنتَ على صواب. أنا لم أجرؤ على مواجهتها. خفت أن تكسفني، لا بل أن تطردني، فأخنق بذلك أملًا أعيش عليه كلّ يوم.

ثمّ استطردت قائلةً:

- أخال أحيانًا أنّ صوتها جارح كصوت عمّها أبي محمود، ونظراتها مسماريّة كنظراته... كيف سآلفها إذا كانت كما أتصوّرها؟

كاد يقول لها إنّها تملك صوتًا رخيمًا ونظراتٍ ذليلة دامعة ومشحونة بالأسرار. لكنّه بادرها بسؤال ليثبت هذه الحقيقة:

- أهي ترتدي ثوب الدّين؟

- حتمًا. ما داموا أجبروا أمّها على ارتدائه فهل سيعفونها منه؟!

- هاتي عنوانها، ماما.

فتحت سهى دليل الهاتف وأخرجت ورقة صغيرة، وهي تقول:

- خذ. لقد أعطاني إيّاه مختار قريتها بعد محاولاته الفاشلة معها.

خرج سيزار وبيده عنوان سارة وفي داخله يقين بأنّها لن تبخل

عليه بردّ الجميل.

انتظر السّاعة الخامسة بفارغ الصّبر ليقفل مكتبه ويتوجّه إلى بيت يوسف.

العنوان كان واضحًا، قاده خلال دقائق معدودة إلى باب بيت يوسف.

قرع الجرس. وما إن سمعه بهاء حتّى أسرع باتّجاه الباب يحتفي بالقادم، ومرام تلحق به وهي تصرخ فيه:

- لا تفتح الباب قبل أن ننظر من العين السّحريّة.

لكنّ الصّغير كان الأسرع وفتح الباب قبل أن تبلغه مرام بخطوة.

ويا للمفاجأة! سيزار يقف أمامها!

وقفا وجهًا لوجه تفصلهما خطوتان وتجمعهما دهشة الموقف.

دهشة سيزار كانت مصحوبة بأنفاس نصر قادم، بعد أنّ ظنّ أنّ له نصيرًا في هذا الموقف المُربك، ألا وهو حبيبته مرام التّي برّر وجودها ذلك الشّبه بينها وبين تلك الشيخة بعد أن تكهّن أنّها ابنة عمّها. في حين كانت دهشة مرام مقرونة بوجلٍ من الآتي وبخوفٍ من أن يعرف عمّها بعلاقتها بسيزار.

لحظات الدّهشة تلك قطعها سيزار بسؤاله:

- ماذا تفعلين هنا مرام؟

- هذا بيتي. ما الّذي أتى بك إلى هنا؟

- جئتُ لغرضٍ. أتتركينني عند الباب؟

- أه، أعتذر... تفضّل، تفضّل.

وإذ بيوسف يطلّ مستفسرًا:

- من على الباب يا مرام؟
- إنّه سيزار، زميلي في الجامعة.
اقترب يوسف من الباب، بينما مرام تضيف قائلة:
- يبدو أنّه يقصدك أنتَ لأنّه تفاجأ بوجودي.
رحّب يوسف به وقاده إلى غرفة الاستقبال.
جلس سيزار محاصرًا بارتباك مرام. التفت إلى يوسف مُعتذرًا:
- آسف على اقتحامي المنزل دون موعد سابق. لكن في الواقع كنت أقصد ذلك.
استغرب يوسف، فسأله:
- لِمَ؟!
- لأنّني لو طلبت الموعد ما كنت حصلت عليه.
ازداد استغراب يوسف، فكرّر السّؤال نفسه:
- لِمَ؟
- سأدخل في الموضوع مباشرة. في الواقع جئت قاصدًا سارة. أريد محادثتها بشأن خالتها.
صحيح كما يُقال: "لا تفعل شيئًا خفية فالزّمن يرى ويسمع ولا يكتم السّرّ".
ها هو سرّ مرام يشرئبّ من خلف هيكل حبّها الذّي بنته على واقع مزيّف.
كيف تهرب من هذا الموقف قبل أن تتشكّل أمام حبيبها بكلّ الصّفات التي ستنعتها بها الحقيقة: الكذب، الخيانة، والحقد؟
كيف تفهمه الآن، أنّها لم تكذب عليه إلّا للاحتفاظ به؟

كيف تؤكّد له أنّها لم تخن رشاد معه، بل وجود رشاد في حياتها هو خيانة لحبّها الأسطوريّ له؟

كيف تجعله يَعي أنّ رفضها لخالتها ليس حقدًا، بل هربٌ من ماضٍ خالٍ من حنانها، مليء بفقدانها؟

أمام صمت يوسف وانخطاف مرام، أضاف سيزار:

- كلّ ما أرجوه أن تواجهني. هي تعرفني دون أن تعرف أنّني قريبها. قولا لها إن سيزار يريد محادثتكِ.

سأله يوسف:

- وما صلة القربى بينكما؟ ومن أين تعرفها؟

- أنا من أقلّها إلى بيروت قبل أن أعرف أنّها ابنة خالتي.

قاسية كانت كلماته عليها...

وقفت مذهولة، يكاد يُغشى عليها...

كيف تحتال عليها الحياة بهذا الشّكل؟ كيف تُلقي بسيزار في دربها مرّتين ليكون حبيبها، ومن ثمّ تُفاجئها بهذه الحقيقة؟

فقالت دون وعي:

- مستحيل... مستحيل...

الهلع في نظراتها أعاده إلى عيني تلك الشّيخة المسكونتيْن بالخوف.

لم يصدّق ما رآه!

إنّها هي. أجل، إنّها هي!

حقيقة موجعة جرّدته من مرام الحلم...

ها هي تقف أمام حبيب تتوق إليه وابن خالة ترفضه...

وها هو يقف أمام ابنةِ خالة يجهلها وحبيبة ظنّ يومًا أنّه يعرفها...
سألها وكلّه أمل أن يسمع خلاف الحقيقة:

- أنتِ هي؟ أنتِ هي مرام؟

- أجل سيزار. أنا هي. أنا تلك الشّيخة الهاربة من كهفها، الّتي توسّلت إليك أن تقلّها بسيّارتك. أنا هي تلك الشّيخة التي هجّرتك من شقّتكَ ليوم وليلة كي تحميها من المدينة وشوارعها الغادرة.

- وتقولين ذلك بهذه البساطة؟! إلى هذا الحدّ تستخفّين بي وتستهترين بشخصي وتُغامرين بحبّنا؟

- حبّنا أجمل ما منحتني إيّاه الحياة، وأصدق ما أشعر به.

- كيف تدّعين ذلك مرام؟! كيف تدّعين ذلك يا حبيبتي المُزيّفة، ووسط هذه الكذبة الكبيرة؟! كم أنا غبيّ!

- أرجوك سيزار اسمعني. أنتَ لست غبيًّا وأنا لستُ بكاذبة. عندما جمعتنا الصّدفة في الجامعة، لم أجرؤ على إخباركَ بالحقيقة، لأنّني كنت خجلى من تلك الكذبة التي لفّقتها وأنا بسيّارتك كي تُبعدني عن القرية. وكنت قد نزعت ثوبي خفية عن عمّي وعن خطيبي، فما كان عليّ سوى التّكتّم على ما فعلت. وبعد أن تعلّقت بك، خفت من البوح، خشيت أن تتزعزع ثقتك بي فتبتعد عنّي.

- وظننتِ أنّ هذه الكذبة ستنطلي عليّ كلّ العمر؟!

- لا طبعًا، كنت أنتظر الوقت المناسب لأجاهر بالحقيقة.

- وأي وقت هذا الذي تنتظرينه وقد مضى على علاقتنا قرابة العام؟!

- أنتظر أن أتحرّر من رشاد لأكون لك وحدك.

- لا أصدّق أنّ التي تقف أمامي هي مرام التي أحببت! مرام التي ظننتها ملاكًا... لقد سحرتني برقّتكِ وشفافيّتكِ... أنتِ لستِ سوى ممثّلة، وممثّلة بارعة...

ثمّ أضاف بصوت ملؤه الحنق:

- كيف تحقدين على خالتكِ وتحاسبينها لأنّها أنكرتكِ لفترة من الزّمن، وأنتِ نفسكِ تنكرين ذاتكِ وتتنصّلين حتّى من اسمكِ؟!

- أنا لا أنكر ذاتي سيزار، لأنّ سارة التي تبحث عنها، هي غريبة عنّي بزيّها وبالحياة التي أُمليت عليها. كما أنّني لم أتنصّل من اسمي، بل محوته وسلختُه عنّي وأثبتّ مكانه اسمي الحقيقيّ الذي أرادت أمّي أن تُطلقه عليّ.

وتابعت تقول بحرقة:

- هذه أنا سيزار، مرام الّتي عرفتها. لا تظلمني... ولا تحسب لجوئي إلى ذاتي هروبًا منها. لا تقسُ عليّ لأنّني رفضت أن أحيا بين الهاربين في الحياة... قرب عمٍّ يحتمي من ملذّات الدّنيا بثوب الدّين ويتمسّك بلقب شيخ هربًا من نَسبه الوضيع. ومع أب أتقن بامتياز لعبة الهروب من واقعه ومن كلّ ما يذكّره بجرائمه بحقّ أمّي. ومع خطيب عاش عمره متشبّثًا بي رغم كرهي له هربًا من فكرة خسارتي. ومع خالة هربت منّي لأنّني الدّليل القاطع على خسارتها لأمّي، وها هي اليوم تلجأ إليّ هربًا من النّدم والإحساس بالذّنب. لم أشأ أن أحيا هاربة بين هاربين، لذا عشتُ رحلة هروبي هذه من سارة ومن كلّ هؤلاء لأعيش ذاتي الحقيقيّة.

- لا أعرف إن كان عليّ أن أرأف بكِ أم أحقد عليكِ! ما أعرفه

هو أنّني كنت مخدوعًا... لقد أحدثتِ صَدعًا في ثقتي بك، لا أعرف وسيلة لرأبه.

ثمّ ثار عليها من جديد:

- لماذا تركتني أتعلّق بكِ ما دمتِ مخطوبة؟

تمسّكت بذراعه باكية صارخة:

- أنا لستُ مخطوبة له سيزار، أنا مُكبّلة به ولا خلاص لي منه. أنا زوجته شرعًا وسيطلبني إلى بيت الطّاعة لأنّ قضيّة التّفريق خاسرة حتمًا؛ فوالدي منذ رحل رماني في قارورة النّسيان، ولن نستطيع الطّعن في صداقي المكتوب عليه. أفهمت الآن سيزار؟ أفهمت؟ لا تَزد في عذابي. أرجوك.

- ماذا فعلتِ بي مرام؟ جعلتني أعشقكِ وأنتِ لست لي!

- ساعدني لأنجو من رشاد. لن أحتمل العيش معه ولا أطيق البعد عنك.

صمته أرعبها. فقالت له بتوسّل:

- لن تتخلّى عنّي سيزار، صح. لن تسمح له بأن يُعيدني إلى زنزانة ثوبي القاهر؟

- أنتِ قدري مرام. لقد رمتكِ الصّدفة في سيّارتي فإذا بك حبيبتي ثمّ ابنة خالتي!

وأضاف:

- لقد قلت لكِ بالأمس القريب "بقدر ما يُخيفني ماضيكِ فاعلمي أنّني مستقبلك". لكنّ استغفالك لي طيلة هذه الشّهور شوّهني أمام ذاتي. فأنا في هذه اللّحظة أكره نفسي لأنّني أحبّك،

وأمقت غبائي لأنّني صدّقتكِ. أنا بحاجة لأرمّم صورتي في مرآتي كي أستطيع أن أحتفظ بحبّي لكِ. ولا أعدكِ بأنّني سأنجح بسرعة في ذلك، لأنّ جرح النّفس من الصّعب أن يلتئم.

يوسف، ورغم استيائه ممّا أخفته مرام عنه منذ يوم وصولها إلى منزله، كان لا بدّ له من أن يتدخّل قائلًا.

- لا تنسَ أنّك ابن خالتها، وبأنّك السّند الوحيد لها في غياب والدها.

- وكيف أنسى؟! إنّ شهامتي الّتي صانتها يوم كانت غريبة عنّي، لن تسمح لي الآن بالتّخلّي عنها بعد أن عرفت أنّها من لحمي ودمي.

ثمّ التفت إلى مرام وأضاف:

- لن أسمح لأحد بأن يقهركِ يا ابنة خالتي. سأكون بجانبكِ في معركتكِ إلى أن تخرجي منها مطلّقة.

وخرج سيزار مُتخبّطًا في ما جرى، مُثقلًا بتلك الحقيقة الأسطورة، تسوقه قدماه إلى البحر ليلقي في أعماقه خيبة حبّه، لعلّه يستريح، ولعلّ آفاق البحر الواسعة تنفتح أمام أبواب حبّه الخائب لمرام، فترسم ملامح لعلاقته بها. هو الّذي كان يظنُّ أنّها أنثى مختلفة وأنّ حبّه لها لا يهدّده شيء في العالم. فكيف سيتمكّن من التّحكّم في هذا الحبّ ويجعله راسخًا ثابتًا أمام حبيبة لها وجهان واسمان؟ وكيف يبتعد عنها وقد باتت جزءًا من أسرته وشريكة له في حضن أمّه!... هو الّذي تيّمه حبّها يوم كان صامتًا أخرس، فكيف يقوى على صدّه يوم بات واضحًا، صاخبًا، هادرًا؟ وكيف

يقوى على هجره لها أمام حضورها اليوميّ في حياته؛ هذا الحضور المكلّل بالشّوق إليها وبالرّغبة فيها؟

بعد خروجه، دخلت مرام غرفتها لتواري خجلها من نظرات أحلام ويوسف، التي تعاتبها وتحاسبها على ما أخفته عنهما.

آلمها كثيرًا أن تهتزّ ثقة أحلام ويوسف بصدقها. وآلمها أكثر أن يُغادرها سيزار كابن خالة، متنكّرًا لحبّه لها، وهو أوّل من صادفته يوم أطلّت على عالمها الجديد فغدا كلّ العالم.

انزوت وذكرياتها، منذ ذلك اللقاء الصّدفة بسيزار حتّى لحظة تعرّي الحقيقة أمامه، مرورًا بوجه خالتها الذّابل وبضحكة أمّها في تلك الصّورة التي تتحدّى الغياب.

كم هو فاشل الموت في تغييب بعض الأشخاص، لأنّ ذكراهم تبقى أبدًا حاضرة ساطعة رغم ظلمة الغياب. فحضور تلك الصّورة ورحيل سيزار كانا يجذبانها بقوّة وإصرار إلى بيت خالتها. فسهى التي كانت، بعد أن باح لها سيزار بكلّ شيء، تائهة بين الفرح والخوف؛ الفرح بأنّ ابنة أختها ليست سوى تلك الرّقيقة الجميلة التي انتقمت لضعف أمّها بخروجها من تلك القوقعة، والخوف من أن يُقصيها رفض سيزار لها، كحبيبة، عن حياتها إلى الأبد.

لم تكن سهى تدرك أنّ مرام رغم كلّ ما تألفه حولها، باتت تشعر بأنّها تعيش بغربة وسط غرباء، وبأنّ المأوى والملاذ باتا هناك في بيت خالتها.

كيف لا، والماضي التّائه من ذاكرتها يرقد هناك!

كيف لا، ومستقبلها الهارب من قلبها يقيم هناك!

كيف لا، وفي ذلك المكان يجتمع حبيباها: أمّها وسيزار!

لذا، لم تعد تُفكّر بما يضمره لها الغد، وبما يخطّط له رشاد، بعد أن وجدت نفسها مسيّرة بعاطفة جامحة إلى بيت خالتها.

قرعت الباب، ودخلت...

غريب ذلك المكان الذي يصرّ على احتضانها منذ أن داست عتبته!

وقفت أمام خالتها...

خرس الكلام بينهما، وسادت مساحة من الصّمت ترويها المآقي.

كم مرّة أصرّت مرام على تجاهل هذه المرأة التي اخترقت ماضيًا مجهولًا وأعلنت عن حضورها باسم خالة!

كم مرّة رفضتها، أنكرتها، كرهتها!...

وها هي الآن تقف أمامها طوعًا لتقف على ذكرى من كانت أغلى النّاس عندها، ولتلبّي حبًّا قدريًّا سكن أعماقها.

اقتربت مرام من سهى وهي تحمل كيسًا صغيرًا في يدها.

مدّت يدها إلى الكيس وأخرجت أثواب أمّها الرّقيقة، ثمّ قالت بحسرة:

- ما عدت أملك من ذكراها سوى هذه الأثواب التي تشعرني بملمسها.

وأضافت بحرقة:

- هبيني خالتي من عطر أمّي. ذكّريني بصوتها الذي خطفته سنون الغياب، وامسحي بضحكاتها دموعها المستقرّة في ذاكرتي،

وساعديني لأحتفظ بسيزار الذي ولّد في حياتي أزمنة من الفرح والحبّ.

مدّت سهى ذراعيها، تناديها بصوت باك:

- تعالي إليّ، تعالي إلى حضني يا غاليةً يا ابنة الغالية.

كانت العطلة القضائيّة الممتدّة ما بين ١٥ تمّوز و٣١ آب، مسافة زمن، تفصلُ رشاد ومرام عن موعد المحكمة للبتّ بدعوى الطّاعة، وميدانًا للمشاحنات وللصّراع النّفسيّ لكلا الطّرفيْن؛ فرشاد يُصارع الوقت بقلق واضطراب، ويُحصي الدّقائق والثّواني بانتظار موعد الجلسة، الّذي عيّنته المحكمة في الثّالث من أيلول ٢٠١١، الّذي سيخرج منها، وفق كلّ المُعطيات، ظافرًا بحكم الطّاعة. في حين كانت مرام تمضي وقتها بحثًا عن باب تنفذ منه إلى خارج الحياة التي يرسمها لها رشاد. وكان عليها في أقل من شهر، أن تعثر على حلّ يبتر صلتها برشاد ويحلّ رباطها به، وإلّا ستُساقُ مُرغمة إلى أسره.

بداية، كان سعي مرام، لتحقيق ذلك، تقليديًّا. إذ توجّه يوسف إلى كبار القرية ووجهائها، طالبًا منهم التّدخّل لإيجاد حلّ للقضيّة بعيدًا عن المحاكم. لكنّ رشاد، مع كلّ محاولة من يوسف، كان يزداد تمسّكًا بقراره وإصرارًا على إرغامها على العيش معه إرضاءً لهيامه بها، وإبقاءً على صورة سلطته الذّكوريّة المتفوّقة في إطارها السّليم، في بيئته الاجتماعيّة والدّينيّة، وتضميدًا لكرامته المهشّمة بعد اعترافات سيزار يوم طرق بابه ليقول له:

– طلّقها.

تأمّل رشاد عيني سيزار الممتلئتيْن تحدّيًا، ثمّ سأله مستنكرًا:

– ومن تكون أنت لتطلب منّي هذا الطّلب؟

- أنا سيزار؛ ابن خالة مرام.

- تقصد سارة!

ثمّ أضاف باستهزاء:

- أنت هو سيزار الّذي ظهر ووالدته فجأة بعد عمر من الجفاء؟!

- القدر جمعني بها في هذا الوقت بالذّات لأنقذِها منك. طلّقها. دعها وشأنها.

- هي أرسلتك إليّ؟ عجبًا! إذا كنت رددتُ وجهاء القرية وكبارها خائبين، فهل سأُذعن لطلبك أنت؟!

- عليكَ أن تسلّم للأمر الواقع صونًا لكرامتك، رشاد.

- لم أفهم! الأمر الواقع يقول إنّ سارة زوجتي ومكانها في بيتي الذي سيسترها، بعد تشرّدها في بيوت الغرباء وهي مكشوفة الرّأس، سافرة الوجه. وبذلك سأصون كرامتي يا... سيزار.

- أنت مُخطئ لأنّك تجهل الحقيقة التي تُهين مقامك ورجولتك أمام الملأ.

- أيّ حقيقة هذه التي تتكلّم عنها؟

- الحقيقة التي باتت أمرًا واقعًا، أنّ مرام تعشقني وتكرهك. فلا يليق بك أن تحتفظ بامرأة ترغب في سواك وترتبط به بمشاعرها وأحاسيسها التي لا تُمزّق ولا تُمحى ولا يُلغيها قرار محكمة. لذا، أعتقها من رباطٍ هزيل يقيّدها بك، قوامه حبر على ورق.

راح صدى عبارة يتردّد في مسامع رشاد: "لا يُمكنك امتلاكي رشاد، ما لم تمتلك مشاعري". فاشتعل غيظًا وصاح بسيزار:

- أتجرؤ على قول ذلك أيّها الخسيس؟ وفي بيتي؟!

- مرام حبيبتي. طلّقها.

- إنّها سارة أيّها الغبيّ، وهي زوجتي وملكي أنا. وهذا الرّباط الهزيل، كما تصفه، هو ما يجعلها حلالًا عليّ وحَرامًا عليك.

وراح يدفعه إلى الخارج وهو يقول:

- اُخرج من منزلي، الآن حالًا. وبلّغها بأنّني سأجعلها تكتوي بنار هذا العشق الحرام، وبأنّها لي ولن تكون لسواي ولو فعلت المستحيل.

خرج سيزار خائبًا ونادمًا على ما اقترفه، موقنًا أنّ زيارته لرشاد ستزيد القضيّة تعقيدًا وستُحيلها لصالح غريمه؛ فرشاد سيستخدمها حتمًا، إذا أفلس في المحكمة، كورقة رابحة يتّهم بها مرام بالخيانة لتشويه صورتها. لذا، عاد سيزار أدراجه وهو ينوي كتمان ما جرى بينه وبين رشاد، كي لا يتورّم خوف مرام من الآتي، وكي لا يوقد الأمل في استمرار علاقتهما، وهو لا يزال رغم تتيّمه بها عاجزًا عن إيقاف نزف طعنتها.

عزم سيزار التّوجّه فورًا إلى محام ذاع صيت دهائه وحيلته، علّه يجد ثغرة تنفذ من خلالها مرام من هذه القضيّة الشّائكة. إلّا أنّ هاتف يوسف فاجأه، طالبًا منه الحضور فورًا مع والدته، دون أن يُفصح عن المزيد، مُكتفيًا بالقول: "سنتحدّث بالموضوع فور وصولكما".

مكالمة يوسف أقلقته ووضعته أمام احتمال أن يكون رشاد أبلغهم بشأن زيارته له، متوعّدًا بما سيترتّب على هذه الزّيارة في المحكمة.

لم يكن سيزار يعلم أنّ مرام تلقّت مكالمة من عمّتها تُخبرها

فيها أنّ عمّها أبا محمود نُقل إلى المستشفى وحالته الصّحيّة غير مُرضية. ممّا دفعها، في الحال، إلى ارتداء ملابسها والوقوف أمام يوسف تطلب منه بإصرار أن يقلّها إلى المستشفى لمقابلة عمّها أبي محمود قبل فوات الأوان.

فاجأت مرام يوسف بطلبها، وفاجأها يوسف بتمنّعه، لأنّ ذهابه إلى أبي محمود سيكون بمثابة رمي الزّيت على النّار. ونصحها بأن يرافقها سيزار وخالتها؛ فهما أقرب إليها لتلوذ بهما في مثل هذه المواقف.

طوال الطّريق إلى الجبل، لم تنبس مرام بكلمة واحدة أمام توتّر خالتها التي تُحاول أن تُخفيه بتقليبها محطّات مذياع يفقدُ صوته كلّما توغّلوا صعودًا، وأمام عزوف سيزار عن النّطق ولو بكلمة تُبشّر بعودته إلى رحاب حبّهما، بعد أن بدأ الكلام بينهما، منذ انكشاف الحقيقة، يحتضر لتحيا مكانه مساحة من صمت.

ورغم ما يسكنها من إحباط، وما يُحاصرها من يأس، راحت مرام تستحثُّ جرأتها على الصّمود في وجه جبروت عمّها أبي محمود لتتمكّن من انتزاع حريّتها منه قبل أن تُنتزع روحه من جسده؛ لأنّ أبا محمود هو الشّخص الوحيد القادر على ردع رشاد، بسلطته وهيبته، عن جرّها إلى المحكمة ومن ثمّ إلى مخدعه.

راحت مرام، وسط الصّمت السّائد في السّيّارة، تحوكِ صورًا للقائها بأبي محمود. كانت في جميع تلك الصّور، ترى نفسها واقفة أمام عينيه الواسعتيْن اللّتيْن ما حملتا يومًا غير نظرات القسوة والحساب.

كانت تتخيّله، تارة حانقًا يعبقُ وجهه حُمرة ويجحظ عينيه ليكوي ما برز من لحمها بنظراته اللّاذعة. وتارة أخرى، تتخيّله مُتّشحًا بالحزن والأسى، يواري وجهه عنها ويطبق جفنيْه كي لا يُلوّث بصره بعريها من ثوب الدّين.

كم كانت بحاجة لجرأة فولاذيّة كي تقف أمامه هكذا، عارية من ثوب الدّين!

كانت مُتّجهة إليه وهي تجهل بأيّة صيغة ستُخاطبه.

فهل تُعاتبه وتلومه وتقذفه بلاذع الكلام، مُحمّلة إيّاه مسؤوليّة ما آلت إليه أمورها؟ أم تنحني على يده تقبّلها وتستجدي عاطفته وتتوسّل إليه أن يرأف بها ويحلّ عقالها؟ أم تضعه وجهًا لوجه أمام إيمانه وقوانين دينه، وتُذكّره بأنّ الزّواج في دينهم لا يتمّ بالإكراه، ولا يجوز له وهو الشّيخ الجليل، أن يفعل ذلك ويجبرها على الزّواج ممّن تبغض، وتطلب منه بكلّ جرأة أن يستدعي رشاد والمشايخ الأجلّاء ويفسخ الصّداق، ليقف أمام الله يوم الحساب بريئًا ممّا فعله بابنة لحمه ودمه. وبينما هي تائهة وسط تلك الأفكار المتزاحمة المتخابطة، وصلت إلى المستشفى.

ترجّلت من السّيّارة بجسد يرتعد مهابة ممّا ينتظرها...

دخلت المستشفى...

كانت قاعة الاستقبال تضجُّ بالمشايخ والأقارب. عرفت على الفور، من العيون الدّامعة ونظرات الجفاء التي استقبلتها، أنّ الذّبالة التي تتصدّى بنورها الضّئيل لعتمة قدرها، قد انطفأت.

لقد مات أبو محمود!

شهقت... ثمّ أخذتها سكرة من الصّمت الموجع...

وقفت أمام الخبر بجسد مُتهالك وعينيْن جافتيْن عاجزتيْن عن استدرار الدّمع.

صحيح أنّ الأحزان الكبيرة تتوّه المشاعر وتتجاوز العبرات وتُخرس أنفاس الحياة في دواخلنا...

كيف لا تشعر بذلك، وموت أبي محمود أمات في حياتها الحلم والأمل؟

حضنتها خالتها وأعادتها إلى السّيّارة. هناك تهاوت على المقعد مذهولة، مصدومة، مفجوعة؛ ففقدانها لأبي محمود كان كبيرًا كبيرًا...

على الرّغم من كلّ الأسى الذي سببه لها، كانت تشعر بالفقدان وبالحسرة لأنّها لن تودّعه، ولو ميتًا، كالآخرين.

أجل، كانت تشعر بالفقدان... فقد فقدت برحيله الأمل الوحيد بخلاصها من قدرٍ بات محتومًا ولا مفرّ منه.

طريق الإياب كانت أكثر صمتًا من طريق الذّهاب. صمت لا يقوى أيّ كلام على مواجهته. فبأيّ كلام تواسيها خالتها، وهي على يقين أنّ هجرها لها كان أحد أسباب هذا القهر الّذي ينتظرها؟ وبأيّ كلام يواسيها سيزار، الّذي يقف أعزل أمام غريمٍ مدجّج بسلاح ماضٍ، ألا وهو ورقة الصّداق؟

وصلوا إلى منزل يوسف في بيروت.

ركن سيزار السّيّارة. وقبل أن تترجّل مرام، استوقفها سيزار قائلًا:

- هوّني عليكِ مرام؛ عمّك كان مريضًا...

قاطعته مُجيبة:

- حزني ليس على موت عمّي، سيزار؛ فالموت حقّ. حزني على روحي التي تُستعبد، وعلى جسدي الّذي لا أملك حقّ امتلاكه. أنا أبكي على ما ينتظرني من ظلم ؛ والظّلم أصعب من الموت...

وغصّت بدموعها...

حضنتها خالتها بينما سيزار لم يكن أمامه سوى التّخفيف عنها بالقول:

- لِمَ هذا اليأس؟ ليس هناك من ظلام دامس، مرام. لا بدّ من أن يلوح لنا نور ولو ضئيلاً نهتدي به.

- نور؟! وممَّ سينبعث؟! ألا ترى هذا الظّلام البهيم الّذي يلفّني؟!

فقالت لها خالتها باندفاع:

- لا تقولي ذلك حبيبتي. سنجد حلًّا. سترين.

ابتسمت لها مرام ابتسامة باهتة، مجاملةً. ثمّ شكرتهما على مرافقتها، وهمّت بالاتّجاه نحو المبنى. فاستوقفها سيزار:

- مهلًا. سنرافقكِ.

وصعدوا معًا إلى منزل يوسف.

عندما رأت مرام أحلام، انفجرت باكية، وارتمت فوق صدرها وهي تقول:

- سأقتل نفسي خالة قبل أن يسوقني رشاد إلى منزله.

- كنتُ أنتظر أن يرفض عمّك مساعدتكِ. اهدئي. فما من

جديد حصل. ستكرّرين المحاولة، وسيأتي اليوم الّذي يرأف فيه قلبه بكِ.

- عمّي مات خالة... مات، ومات معه كلّ أمل بالنّفاذ من دعوى الطّاعة.

موت أبي محمود وحالة مرام وضعا الجميع في حالة من الإرباك والضّياع. إلا أنّ فكرة وقع عليها سيزار كان من شأنها أن تُخفّف من وطأة الحصار الّذي زاد خناقه بعد موت أبي محمود.

- يجب أن نُسلّم القضيّة لمحام آخر. وقد أرشدني صديق إلى محامٍ مشهور بحنكته ودهائه، وما خرج من قضيّة خاسرًا حتّى اليومً. سنزوره غدًا لأنّ جلسة المحكمة باتت على الأبواب. لكن قبل ذلك علينا أن نقوم بعمل آخر.

التفت إلى أحلام، وأضاف:

- أحضري لنا الكمبيوتر المحمول، خالة.

التفتت مرام باستغراب، وسألته.

- لِمَ؟!

- ستعرفين في الحال.

ثمّ كرّر طلبه من أحلام.

- أحضريه خالة لو سمحتِ.

أحضرت أحلام الكمبيوتر على وجه السّرعة. أخذه سيزار ووضعه أمام مرام وهو يقول:

- افتحي الفيسبوك.

رفضت بتأفّف:

- لا أريد. لا رغبة لي في ذلك...

فعاود طلبه بأسلوب الأمر:

- افتحيه مرام.

فتحت مرام الفيسبوك هربًا من الدّخول في جدال وهي لا طاقة لها على الكلام.

ضغط سيزار على كلمة "Status" وقال لها بحزم:

- اكتبي كلامًا إلى والدك، وأفرغي فيه كلّ شجونك، واطلبي منه العودة لنجدتك.

عندها، أجهشت مرام بالبكاء وراحت تصرخ قائلة:

- لماذا تُعذّبني سيزار؟ لماذا؟ لماذا تفتح بئر أحزاني؟ أبي نسيني، نسيني، هل فهمت؟

- وربّما لم ينسكِ! قد تخترقه كلماتكِ. فلنحاول مرام.

- وكيف سيقرأ ما سأكتبه؟ قل لي كيف؟ ربما لم يدخل عالم الفيسبوك. لا بل بالتّأكيد لم يدخله، لأنني هدرتُ ليالي طويلة وأنا أبحثُ عنه، ولم أعثر عليه.

عندها تدخّل يوسف:

- بالطّبع لن تعثري عليه، لأنّه من المستحيل أن يدخل عالم الفيسبوك باسمه الحقيقيّ، وهو الهارب من نفسه وواقعه وبيئته.

ثمّ أردف يقول:

- أنا متأكّد من أنّ لديه حسابًا على الفيسبوك باسم آخر وصورة غير صورته. وأُراهن على أنّه يتواصل مع العديد من الأقارب، وربّما معي أنا بالذّات، بشخصيّة أخرى.

التقط أنفاسه وتابع كلامه بينما تنظر إليه أحلام باستنكار لم تفهم مرام مغزاه.

- فكرة سيزار جيّدة يا ابنتي. اكتبي له رسالة، وانشريها على صفحة ساحة القرية، لعلّه يدخل عليها للاطّلاع على أحوال القرية وأهلها في غيابه! ووزّعيها أيضًا على حسابات الأقارب والأصدقاء. حاولي لا خسارة في ذلك. لعلّ وعسى...

سرحت مرام للحظات غافلة عمّا يدور حولها من حديث، ثمّ كتبت:

أبي...

بعد عمر من رحيلك عنّي، ذكريات كثيرة التحمت بذاكرتي. وذكريات أُخرى تاهت منّي على دروب الأيّام...

أذكر جيّدًا نظّاراتكَ، وكم كنت أستمتع بوضعها فوق عيني لأرى الأشياء كبيرة ضخمة. لكنّني لا أذكر قطّ نظراتك الحنونة إليّ...

أذكر حذاءك الكبير حين كنت أنتعله وأتعثّر لصغر قدمي. لكنّني لا أذكر وقع خطواتك التي كانت تُنبئني بقدومك...

أذكر قامتك الفارعة وأنت تسير بي إلى مدرسة القرية، ولا أذكر ملمس يدك وهي تحضن يدي الصّغيرة...

أذكر كلّ الأماسي التي غفوتُ فيها خلف باب البيت وأنا أنتظر عودتك إلينا، لكنّني لا أذكر كيف حضنتني

يوم الرّحيل.

أرجوك أبي، عد إليّ، لا لأستعيد ذكرياتي التّائهة، بل لتكون سندي في المحكمة، ومنقذي من زواج حيك لي وأنا بعد صغيرة لا أجرؤ على الرّفض.

غيابك أبي حاصرني بالحرمان والحزن لسنوات، فلا تجعله سببًا لأحيا عمري القادم في تعاسة وشقاء.

عد أبي، أرجوك. فلا تكن سبب هلاكي.

ابنتك سارة.

أيّام عصيبة قادتها إلى اليوم المقرّر فيه موعد المحكمة.

خلال تلك الأيّام التي سبقت الموعد صارت تنتابها حالات عجيبة غريبة؛ فأحيانًا تغرق في بكاء دافق لا حدّ له. وأحيانًا أخرى تنهض كالمجنونة وتمتشق ريشتها وترسم لساعات وساعات دون كَلَل. وكثيرًا ما كان النّوم يهجرها، فتُمضي اللّيل مسمّرة أمام شاشة الكمبيوتر منتظرة رسالة جوابيّة من والدها.

وسبقت موعد المحكمة ليلة من السّهاد، أمضتها مرام مسكونة بالقلق والهلع، وهي تُشيّع أحلامها وسط الظّلام الّذي يطوّق سريرها ومصيرها.

وأطلّ الفجر ببيارقه الأولى... ودقّ ناقوس الخطر...

كم كرهت ذلك الفجر!

غريب هو الزّمن كيف يعبث بدواخلنا ويلّونها وفق ظروفه! فها هي مرام التي تُقدّس الفجر، تتمنّى مع إطلالته لو تُمسك بجدائل اللّيل لتستوقفه وتُطيل بقاءه كي ينأى بها عن موعد المحكمة.

كان نور الفجر في ذلك اليوم مُحمّلًا بحقائب من ظلام يطمس ملامح مصيرها.

كان نور الفجر ذلك اليوم، يبثُّ في روحها أنفاس النّهايات.

صوت جرس الباب في ذلك الوقت المبكر، أقلقها وحثّها على النّهوض من فراشها.

وضعت سترة على كتفيْها، فوق ثوب النّوم، ومشت بخطى متثاقلة وبروح هزيلة. وما إن فتحت باب غرفتها حتّى وجدت سيزار يقف بقامته الفارعة في غرفة الجلوس يتحدّث إلى يوسف.

تسمّرت في مكانها...

راحت تتأمّله بعينيْن يملؤهما شوق آتٍ، وبنظرات تحمل غمزة وداع.

كم تمنّى في تلك اللحظات أن يدوس على كبريائه، ويضمّها إلى صدره لتزفر فيه كلّ شجونها!

لكنّه وجد نفسه عاجزًا عن التّمرّد على ذاته، مُكتفيًا بإلقاء التّحيّة والقول:

- جئتكِ بخبر سارّ من المحامي.

- حقًّا؟! وما هو سيزار؟

- لن تذهبي إلى المحكمة اليوم. ستتغيّبين عن الجلسة. وهذا يعني أنّ البتّ بالقضيّة سيؤجّل، ممّا يعطينا الوقت الكافي لنجد مخرجًا منها.

- ألا يصدر الحكم غيابيًّا؟

- أكّد لي المحامي أنّ لديه عذرًا شرعيًّا سيعيق ذلك. سنحضر الجلسة أنا وعمّك يوسف، ونعود إليكِ بالأخبار.

دخلت أحلام تحمل صينيّة القهوة وهي تقول:

- هيّا لنشرب القهوة معًا.

أجابها سيزار:

- سأشرب القهوة مع العم يوسف، بينما أنت تُساعدين مرام

على وضع ثيابها في هذه الحقيبة.

قال ذلك وهو يُشير إلى حقيبة سفر صغيرة مركونة جانبًا.

اضطربت مرام وسألته بقلق:

- سأُسافر؟!

- لا يمكنكِ السّفر لأنّ رشاد بالطّبع قام بإجراءات حظر السّفر عليكِ، خاصّة بعد أن علم ب...

كاد أن يقول "بقصّة حبّنا"، لكنّه استدرك وقال:

- بما كان بيننا.

بهت وجه مرام واتّشح بالخوف وهي تسأل باضطراب:

- رشاد عرف بذلك؟! كيف؟!

لم يجرؤ على إخبارها بزيارته تلك وبالمشاحنة التي حصلت بينهما. فأجابها:

- هذا ليس مهمًّا... أمّي تنتظركِ الآن في السّيّارة لتقلّكِ إلى شقّة صغيرة استأجرتها باسم صديق لي، كي لا يستطيع أحد أن يقتفي أثركِ.

- لم أفهم سيزار!

- صحيح أنّ ثقتي بالمحامي كبيرة، لكن لا بدّ من اتّخاذ تدبير في ما لو أنّ القاضي حكم بالطّاعة.

صمت قليلًا ثمّ أضاف بنبرة شجيّة:

- لن أسمح بخضوعكِ لحكم الطّاعة. ولن أضعكِ بين يدي رشاد. ستتوارين ريثما نجد حلًّا يُخرجك من حكم الطّاعة، حتّى لو نُعتِّ بالنّاشز. وإذا أجّل القاضي الحكم بالقضيّة، ستعودين إلى هنا.

كانت تودّ لو تسأله: "لماذا تفعل كلّ ذلك؟! أما زلت تُحبّني؟". لكنّها خافت أن يجيبها بتلك العبارة التي خنقتها في ذلك اليوم: "لأنّكِ ابنة خالتي؛ لحمي ودمي". فابتلعت السّؤال، وحملت الحقيبة وهي تقول:

- لن أدع خالتي تنتظر أكثر من ذلك. سأجمع ثيابي بسرعة.

دقائق معدودة وكانت مرام جاهزة للمغادرة. ودّعت أحلام وبهاء، وخرجت برفقة سيزار ويوسف؛ هي استقلّت سيّارة خالتها، وهما توجّها إلى المحكمة المذهبيّة في الجبل.

خوف سيزار ممّا قد ينتج عن الجلسة كان يُضاهي خوف مرام؛ فمسافة زمن قد تُصبح بعدها مرام لرجل آخر، ويغدو جسدها الّذي يشتهيه مُتعة لرشاد.

كانت هذه الفكرة تدقُّ أعصابه طوال الطّريق وتزيده إصرارًا على هزم رشاد وتحرير مرام منه.

كان قد أوصى أمّه ألّا تتركها، في ذلك الصّباح، وحدها في مكان غريب عنها، فريسة انتظار قرار المحكمة. وطلب من أمّه أن تأخذ معها ألبومات الصّور لتشغلها بها عن الخوف والقلق؛ فهو يعرف عشق مرام للصّور وما تحمله من حكايات.

وبعد أكثر من نصف ساعة من المسير، وصل سيزار ويوسف إلى المحكمة.

ركن يوسف السّيّارة قبالة المبنى ودخل برفقة سيزار. وكان رشاد ومحاميه عند المدخل الدّاخليّ.

صُعق رشاد عنما رآهما يدخلان من دون مرام. فرمقهما بنظرات

حانقة، ثمّ اندفع باتّجاههما، وسألهما بغضبٍ:

– أين سارة؟ أتظنّ أنّها بتغيّبها عن الجلسة ستتفلّت من الحكم؟ مُخطئة... سأخضعها لطاعتي عاجلًا أم آجلًا.

صاح به سيزار:

– خسئت.

– أصمت أنت، لعنك الله.

تدخّل محامي رشاد لضبط الوضع، بينما يوسف يوعز إليهما:

– أخفضا صوتيْكما.

ثمّ التفت يوسف إلى رشاد يقول بحزم:

– ابتعد عن طريقنا، رشاد. لا فائدة من تهجّمك. المحكمة ستفصل في هذا الموضوع.

وإذ بالمنادي يُنبئهم ببدء الجلسة.

صعد الجميع إلى قاعة المحكمة. كان محامي مرام ينتظر سيزار ويوسف أمام مدخل القاعة مع رجل لا يعرفانه.

وبدأت الجلسة.

كان محامي مرام جنيًّا بحقّ؛ فصيحًا، قديرًا، ممسكًا بزمام القضيّة بإحكام، وحاضرًا مع ذريعة قانونيّة تُبرّر غياب مرام عن الجلسة، وتُجبر القاضي على تأجيل البتّ بالقضيّة.

انبرى المحامي يستعرض حياة سارة منذ طفولتها المشحونة بالحرمان، بعد وفاة أمّها ورحيل أبيها، إلى إجبارها على التّزيّي بزيّ الدّين، وعقد قرانها المزيّف على رشاد وهي بعد صغيرة، وصولًا إلى حرمانها من الالتحاق بالجامعة، جاعلًا من هذه

التّراكمات عاملًا نجح في تدمير حالتها النّفسيّة وسبّب لها اكتئابًا شديدًا، اكتشفته أحلام بعد لجوء مرام إلى بيت عمّها يوسف في بيروت. ممّا اضطرّها إلى عرضها على الطّبيب النّفسيّ، الّذي قَدِمَ برفقته ليُدلي أمام المحكمة بتقرير وافٍ عن صعوبة الحالة النّفسيّة لموكّلته.

وسلّم المحامي دفّة الكلام إلى الطّبيب بعد أن طلب منه القاضي أن يُقدّم ما عنده.

وضع الطّبيب أمام القاضي ملفًا يُبيّنُ مواعيد جلسات العلاج الّذي خضعت له سارة في عيادته، بالإضافة إلى تقرير بالأدوية التي تتناولها بانتظام وللمدى البعيد، والتي تؤكّد من أنّها وصلت إلى درجة متطوّرة من الاكتئاب، شارحًا مخاطر هذا المرض الذي ينسحبُ على طريقة التّفكير والتّصرّف، ويُعيق المُصاب به عن ممارسة حياته اليوميّة بشكل طبيعيّ، لأنّه يسبّب شعورًا بانعدام الرّغبة في الحياة. وتمنّى الطّبيب على القاضي أن يرأف بمريضته ويؤجّل وقوفها في المحكمة للبتّ بقضيّتها، كي لا يودي ذلك إلى تفاقم حالتها، ممّا قد يدفعها للقيام بأخطر مضاعفات هذه الحالة، وهو الإقدام على الانتحار.

عندها، اعترض محامي رشاد على ادّعاء خصمه بأنّ عقد قران موكّله على مرام مزيّف، مُقدّمًا للقاضي دلائل شرعيّته، مشكّكًا بما قدّمه الطّبيب للمحكمة من تقارير، ذلك أنّ موكّله وهو أقرب المقرّبين إلى سارة يؤكّد صحتّها النّفسيّة بعدم ظهور أيّة دلائل تُبيّنُ عكس ذلك، مُشيرًا إلى أنّ تخطيطها للهرب من بيت عمّها

يُثبت أنّها تملك عقلًا مدبّرًا وأعصابًا حديديّة، ونجاحها في سنتها الجامعيّة مؤشّرٌ واضحٌ لصحّتها النّفسيّة. وتساءل محامي رشاد عن سبب غياب أحلام وهي الشّاهد الوحيد على أقوال الطّبيب بعد أن تنصّل يوسف من الموضوع بقوله "إنّ العناية بسارة هي من شأن أحلام"، باسطًا أمام القاضي خُلاصة واضحة، وهي أنّ ما تقدّم به الطّبيب، في ظلّ غياب الشّاهد الوحيد على صحّته، ليس سوى حيلة حيكت من قِبَل خصومه لاستدرار عطف القاضي.

وبعد الاستماع إلى الطّرفين، قرّر قاضي المذهب تأجيل الحكم بالدّعوى إلى شهرين من تاريخ الجلسة الأولى، يتمّ خلال هذا الوقت عرضُ سارة على طبيب نفسيّ آخر يوافق عليه الطّرفان، للوقوف على حالتها النّفسيّة التي ستصوّب حكم المحكمة في القضيّة.

خرج سيزار ويوسف من المحكمة وعلى وجهيهما ترتسم أمارات الرّاحة. وخرج رشاد، دون أن يلتفت إلى محاميه، معقود اللّسان ومُثقلًا بالخيبة.

صحيح أنّ لا شيء يجعلنا أكثر صمتًا كخيبات الأمل!

وصحيح أنّ أصعب حالات الخيبة التي تنتاب الإنسان، هي تلك التي تعقب سعيه بكلّ ما لديه لتحقيق مستقبل رسم ملامحه من نسج أحلامه وأمنياته، وعندما تضرب له الحياة موعدًا مع هذا المستقبل، يجد نفسه يراوح في مكانه، بينما أحلامه تغور أمام ناظريْه في ضباب المستحيل.

هذا الإحساس أخرج رشاد من المحكمة وأدخله في دهاليز

ذاته من جديد؛ هذه الدّهاليز المزدحمة بأطياف سارة. ولم يخرج عن صمته إلّا حين اتّصل به المحامي في اليوم التّالي، يُصرّ عليه أن يواظب على العمل في محل الخرضوات في بيروت، وأن يُقيم في الشّقّة الّتي جهّزها لسارة قرب الجامعة. لأنّ وجوده في بيروت ومزاولته العمل فيها، من المُعطيات التي تدعم الدّعوى. وأكّد له أنّ مسألة الطّبيب حلّها سهل، وليس عليه سوى الصّبر لشهرين اثنين.

عندها، اكتفى رشاد بالقول:

- أريدها. سمعتني أستاذ؟ أريدها. أريدها أن تملأ حياتي وبيتي وسريري كما تملأ قلبي. اربح القضيّة.

كان خوفه من قرار المحكمة يؤرّقه في جوف اللّيل وينتزع الرّقاد من عينيه، فتضيق أنفاسه وينتفض خارقًا سكون شقّته بكلمة "سأتزوّجها". ويردّد هذه الكلمة مرّات ومرّات إلى أن تسري هذه الفكرة في شرايينه، فيسكن جنونه وتهمد كلّ هواجسه القاتمة.

لم يكن ذانك الشّهران، اللّذان يسبقان موعد الجلسة الثّانية في المحكمة، متنفّسًا لمرام كما ظنّ سيزار ويوسف. بل كانا مسافة زمن ضبابيّة الآفاق، مزروعة بالهمّ والقلق، خاصّة بعد اتّصال المحامي لإبلاغها بموعدها مع الطّبيب الّذي تمّ الاتفاق عليه مع محامي رشاد، لمعاينة حالتها النّفسيّة، وبموعد آخر يسبق هذا الموعد، مع الطّبيب الّذي ادّعى مرضها في المحكمة ليلقّنها كيفيّة التّصرّف كإنسان يُعاني من الاضطراب النّفسيّ. وذلك لكي تظفر بتقرير طبّيّ يكفل لها، على الأقل، تأجيل موعد الحكم بالقضيّة مرّة أخرى، ممّا يُعطيهم الفرصة للبحث عن حلّ يُخرجها طالقًا

من القضيّة.

عاشت مرام أيّامًا من التّوهان والقلق. أفكارها كلّها تدور في محور سؤالَيْن اثنيْن: ماذا لو اكتشف الطّبيب لعبتها وأقر بصحّتها النّفسيّة؟ وإن انطلت الحيلة على الطّبيب، ماذا بعد تأجيل الحكم؟

هذا السّؤال الأخير، أجابت عنه أحلام في تلك اللّيلة أمام صمت سيزار ويوسف، وذلك قبل أسبوع من موعد الجلسة، قائلة:

- التّأجيل حبيبتي سيزجّكِ في أيّام جديدة مسكونة بالقلق والانتظار، وسيضخّم مخاوفكِ إلى أن تُصبحي مريضة نفسيّة بكلّ معنى الكلمة.

التفت إليها يوسف حانقًا:

- ما بكِ أحلام؟! أيعقل ما تقولينه؟!

- إنّها الحقيقة يوسف. ولِمَ نهرب منها؟! ولِمَ نستمرّ هكذا صامتين، تاركين هذه المسكينة فريسة قلق قد يقضي عليها؟!

وتابعت تقول:

- أمامها سنة جامعيّة قد تضيع منها وسط هذه الظّروف. وينتظرها معرض قد يكون بابها للمجد؛ هذا الباب الّذي سيقفله رشاد في ما لو ربح الدّعوى. هل نقف هكذا مكتوفي الأيدي، مستسلمين للعبة سخيفة يلعبها المحامي، وهي تنساق أمام أعيننا إمّا لرشاد وإمّا للجنون؟!

تدخّل عندها سيزار قائلًا:

- أنتِ تُبالغين خالة. الأمر يتطلّب منّا بعض الصّبر؛ فالحلّ بيد المحامي بإذن الله.

انتفضت عندها أحلام قائلة:

- الحلّ بيدك أنت سيزار. ألا تُحبّها؟ خذها واهرب بها إلى أي مكان في العالم. فالقاضي لن يحكم بالطّاعة على امرأة تُساكن رجلًا آخر.

صاح بها يوسف:

- وتشجّعينها على الحرام يا أحلام؟

أقفلت احلام باب الغرفة وهي تقول بعصبيّة:

- لا ترفع صوتك يوسف ستوقظ بهاء. وليس هناكَ من داعٍ لهذا الصّراخ!

تدخّل عندها سيزار:

- اهدآ لو سمحتما.

ثمّ التفت إلى أحلام مؤكّدًا:

- لن يُسمح لها بالسّفر والدّعوى قائمة.

- إذًا، اختارا مكانًا هنا في لبنان.

صاح بها يوسف من جديد:

- كفى أحلام. أعتقينا من حلولكِ هذه.

- لِمَ؟! أنا أثق بسيزار؛ فهو ابن خالتها، وسيحافظ عليها إلى أن تظفر بالطّلاق.

- لن أسمح بذلك وهي في عهدتي، مهما...

قاطعه سيزار:

- وستكون في عهدتي أنا. سأصونها كما أصون أختي، لا بل أكثر. وذهابها معي سيكون لعبة جديدة على المحكمة.

كلام سيزار زاد مرام أسى لما يحمله من اعتراف صريح بموت حبّه لها؛ فعجزت عن ابتلاع دموعها، التي استفزّت أحلام من جديد:

- أمام رفض عمّك للموضوع، ما عليكِ سوى الوقوف أمام القاضي وإشهار حبّك لسيزار، والتّأكيد للقاضي أنّ حكمه بالطّاعة إلى رشاد سيدفعك إلى الزّنا.

عندها فَقَدَ يوسف أعصابه، فصاح بملء صوته:

- كفى أحلام، هل جننتِ؟

بينما شهقت مرام خوفًا ووجلًا، وهي تقول:

- وكيف أقوى على ذلك خالة؟ وسُمعتي؟ ومقامي بين النّاس؟

- خائفة من ألسنة النّاس التي أوّلت عَنْكِ أخبارًا ولم ترحمكِ يوم هربتِ من القرية، ولستِ خائفة من قرار المحكمة؟!

تنفّست أحلام ملء رئتيْها، وتنهّدت وهي تقول:

- الأولويّة لحريّتكِ مرام، وعدا ذلك لا يهم.

- كلامكِ صائب خالة. لكنّني لا أملك الجرأة لأُقدِم على هذا الفعل.

ثمّ أضافت وهي تنظر إلى يوسف المُطرق همًّا:

- آسفة لما سببته لك عمّي. لن أُقوم بأي عمل لا ترضى أنت عنه. وسأنتظر، لعلّ أبي يعود أو يرسل لي ما يُعينني في المحكمة... أشعر أنّه سيأتي، سيأتي حتمًا لنجدتي. فلن يتخلّى عنّي وأنا في هذه المصيبة... أليس كذلك عمّي؟

وأضافت بأسى:

- لقد تَخلّى عنّي في الماضي لأنّه كان مُتأكّدًا من أنّني سأعيش في حضن عمّتي الرّؤوم. أمّا الآنَ لن يكون عونًا لرشاد ضدّي... مُستحيل أن يتغافل عن مصيبتي هذه.

أجابها يوسف:

- لننتظر، ربّما لاح منه شيء.

عندها، فقدت أحلام صوابها. فتوجّهت إلى يوسف بلسان حادّ.

- أنتَ تقول ذلك يوسف؟! كيف، وأنتَ متأكّدٌ من أنّ والدها لن يأتي؟! لقد تغاضيت عن تشجيعكَ لمرام لكتابة تلك الرّسالة إلى والدها، لكن الآنَ لن أسكت عن جوابك هذا.

ثمّ التفتت إلى مرام وهي تقول بجديّة وتأكيد:

- لا تنتظري المُستحيل مرام. والدكِ لن يأتي.

- لِمَ خالة؟!

لم تُجبها أحلام، بل التفتت إلى سيزار تقول بحسم:

- خذها وارحلا من هنا. هذا الحلّ الوحيد الّذي سيُنهي الدّعوى لمصلحة مرام، فأهل رشاد سيرفضونها لأنّها ستكون عارًا عليهم، وسيُجْبرونه على الطّلاق.

لم تكن مرام تسمع شيئًا مِمّا قالته أحلام لسيزار. كانت عبارة واحدة تتردّدُ في مسامعها، العبارة الّتي قالتها أحلام ليوسف: "أنتَ مُتأكّدٌ من أنّه لن يأتي".

اقتربت مرام من يوسف. نظرت في عينيْه المُربَكتيْنِ، وسألته:

- ماذا تُخفي عنّي عمّي؟

رمق يوسف أحلام بنظرة لوم وعتب، بينما كانت مرام تُعاود سؤالها له:

- أخبرني عمّي بما تُخفيه عنّي.

أطبق يوسف كفّيه على وجهه وكأنّه يُداري أن تجْهر نظراته بالسّرّ الذّي دفنه لسنواتٍ وعجز عن نسيانه.

وبعد لحظاتٍ من الصّمت، رفع كفّيه عن وجهه ونظر في عيني مرام متوسّلًا:

- ارحميني يا ابنتي. إنّه سرٌّ ثقيل وثقيل جدًّا. سرٌّ أتعبني أكثر من ثلاث عشرة سنة ولم أبح به.

- وما هو عمّي؟

- لا أقوى على البوح... لا أقوى!

عادت أحلام إلى لهجتها الصّارمة لتقول:

- إن لم تُخبرها أنت يوسف، سأتولّى أنا ذلك.

صاح يوسف بألم:

- ذبحتني أحلام، ذبحتني.

- وها هي تُذبح أمامك يوسف. قل لها حقيقة والدها كي تستطيع مواجهة المحكمة بقرار جريء، أو بحلٍّ ما لا أعرف ما هو... ما أعرفه أنّه عليك أن تتكلّم يوسف.

أطرق يوسف للحظات ثمّ قال:

- هذا السّرّ يخصّكِ وحدكِ مرام دون غيركِ مِنَ النّاس.

- إنْ كنتَ تقصد وجود سيزار معنا، فلا تخشَ ذلك عمّي؛ فسيزار الّذي صانني يوم كنتُ غريبة عنه، سيصون أسراري بعد أن

بتُّ فردًا من أسرته.

أخذ يوسف نفسًا عميقًا، ثمّ قال:

– أمستعدّان لسماع ما سأرويه؟ وقادران على كتمانه؟

– أجل عمّي، بُح وارحمني.

اعتدل سيزار في جلسته وقال:

– تأكّد أنّ سرّك في بئر.

– بعد موت والدتكِ، الجميع صدّق رواية والدكِ، بأنّهما كانا عائدَيْن من الكرم، وكانت تحمل بندقيّته بينما كان يحمل سلال العنب، فتعثّرت وسقطت، وانطلق طلق ناريّ من البندقيّة وقتلها.

– لم أفهم عمّي! أليست هذه الحقيقة؟!

– لا... هي لم تتعثّر، بل والدك دفعها. لم يكن يقصد ما حصل. كان موتها قضاءً وقدرًا.

الأسرار... كم تنوء بكتمانها الرّوح، وكم تكوي الآخرين حين نزفرها!

ها هو ماضيها يتشوّه أمامها من جديد!

غابت مرام، بعد ما سمعته، في نوبة من البكاء الصّامت الموجع. ثمّ تمتمت تقول:

– وكيف حصل ذلك؟

– بعد موت والدتكِ بيومينِ، فاجأني والدكِ بزيارة غير متوقّعة. كانت الحادية عشرة ليلًا وكنت وأحلام نستعدّ للنّوم بعد يوم مضنٍ أمضيناه واقفَيْن نستقبل التّعازي. عندما سمعنا جرس الباب، في ذلك الوقت المتأخّر، هبَبْنا مذعورَيْن لنجد والدكِ متّكئًا إلى الباب

وفي حالة انهيار شديدة. أدخلته على الفور. فتهاوى على المقعد وغار في بكاءٍ أليم وهو يقول دون انقطاع: "لم أعد أحتمل". حاولت بكلماتٍ مُنمّقة وبأقوالٍ من حكمتنا الشّريفة، أن أُخفّفَ عنه هول المصيبة. فقال لي:

– أنتَ لا تعرف ما هي مصيبتي يا ابن عمّي. لقد قتلتها يا يوسف.

صعقني اعترافه وأخرسني، بينما راحت أحلام تنهال عليه بلاذع الكلام. وعندما سكتت واستسلمت للبكاء، قال:

– لم أقصد قتلها. كان خطأً... لا أجرؤ على الاعتراف، ولا أقوى على الكتمان.

وبدأ يسرد لي ما حصل... أذكر كلامه بكلّ تفاصيله المؤلمة.

صمت يوسف وهو يهزّ رأسه حسرةً. فاقتربت منه مرام وهي تقول بلهفة.

– لا تصمت عمّي. أرجوك أخبرني بما قاله لك في تلك اللّيلة.

– قال، إنّه عاد ذلك اليوم من المعهد الّذي يدرّسُ فيه، إلى البيتِ عند الثّانية عشرة ظهرًا، فوجد والدتكِ منطوية على نفسها في غرفتها بينما أنتِ تلعبين مع عماد ابن عمّك في الخارج. حاول التّودّد إليها، فنفرت منه. سألها عمّا تشكو، فلم تلتفت إليه. انزعج من تصرّفها وقرّر الذّهاب إلى الكرم لقطف العنب. حمل سلّتينِ فارغتيْنِ وبندقيّة بعد أن دكّها ليحمي نفسه إن فاجأته أفعى. وما كاد يملأ السّلتيْن عنبًا، حتّى تفاجأ بأمّكِ قادمةً نحوه. كانت، على حدّ قوله، تلهث غضبًا لا تعبًا. وقبل أن يسألها عن سبب قدومها،

قالت له بعصبيّة وتصميم: "أنا حامل وأريد التّخلّص من الجنين".

أعطاها البندقيّة وحمل هو سلّتي العنب، وطلب منها الذّهاب إلى البيت ليتحدّثا في الموضوع بهدوء. فثارت كالبركان قائلة: "عن أيّ بيتٍ تتحدّث؟ عن هذا الّذي نعيش فيه مع خمسة أشخاص غيرنا؟! وأيّ هدوء ستلقاه هناك؟!".

حاول تهدئتها، لكن عبثًا... وانتهى بهما الأمر إلى مشاحنة حادّة نعتَتْهُ خلالها بالكاذب لأنّه لم يفِ بوعوده لها. ووصفته بالخانع لأنّه منقاد إلى أخيه أبي محمود. ولقّبته بالظالم لأنّه فرض عليها ثوب الدّين. وأكّدت له أنّها لن تجني على روح وتُنْجبها لتحيا مثلك وسط التّخلّف. عندها، لم يتمالك نفسه، فرمى بسلال العنب أرضًا وراح يصفعها وهي تتراجع إلى الوراء حتّى بلغت حافة الجلّ. فسقطت وانطلقت من البندقيّة الطّلقة النّاريّة لتخترق كتفها... ماتت بين يديه قبل أن يصل بها إلى البيت، وكانت المصيبة الّتي هزّت القرية.

أطبقت مرام بكفّيها على أذنيها، لتمنع تسرّب أسطوانة الأمس الّتي قضّت مضجعها وحرمتها النوم لليال طوال، وهي تقول بصوت مرتعد:

- لا يزال صراخ النّسوة في أذنيّ... كفى عمّي، كفى.

حضنتها أحلام وهي تقول لها:

- كوني أكثر صلابة حبيبتي.

- ولماذا تركني؟ ألم تكفه جرائمه بحقّ أمي ليرتكب هذه الجريمة البشعة بحقّي؟

أجابها يوسف:

- بعد أن أخبرني القصّة، سألني بحرقة: "كيف سأعيش بمحاذاة جريمتي كلّ العمر؟". قلتُ له: "ستنسى". أجابني: "كيف وأسبابها تلتصق بثوبي وروحي وبيتي وأرضي؟". لم يكن أمامي للتّخفيف عنه سوى القول: "دع ذلك للزمن؛ فالأيّام كفيلة بتغيير الأحوال. وحبّك لسارة سيساعدك على النّسيان".

عندها، أجابني وفي صوته رنين الوداع: "حبّي لها لن يتلاقى مع ألمها لغياب أمّها. ستكبر أمامي وسيكبر معها يُتْمها وحاجتها لأمّها، وسيتورّم مع ذلك إحساسي بالذّنب. وهذا الإحساس قد يخدعني ويدفعني للبوح لها بالحقيقة. تُرى هل سأحتمل كرهها وعداءها لي عندما تعرف الحقيقة؟".

عاتبته على الفور قائلًا:

- أنتَ مُتديّن، كيف تقول ذلك؟ العمر مكتوب على الجبين يا سميح. لقد كتب الله لها أن تعيش هذا القدر من الحياة.

فأجابني باستهزاء: هي لم تمت يا ابن عمّي بتلك الرّصاصة. الرّصاصة أسكتت أنفاسها فقط، بعد أن قتلتها أنا مرارًا وتكرارًا. لقد جرّعتها الموت جرعة تلو الجرعة... لقد قتلتها على مراحل؛ قتلتها يوم أحببتها، ويوم كسوتها بثوب الدّين، ويوم أسكنتها في بيت لا تمون فيه إلّا على غرفتها، ويوم أجبرتها على الرّضوخ لقوانين أبي محمود... كانت تموت على مرأى من عيني وكنت مسلّمًا بذلك. فأنا ما كنت أستحقّ العيش بقربها وهي حيّة، فكيف أعيش بمحاذاة قبرها بعد أن ماتت؟!".

عندما همَّ بالخروج من بيتي، داهمني خوف شديد عليه. كان كمن صمّم على مغادرة الحياة. خفت أن يُقدم على الانتحار، فرجوته أن يبيت عندي. لكنّه رفض بإصرار. ما تصوّرتُ أبدًا أنّه سيجرؤ على هجر حياته كلّها كي يتنصّل من إحساسه بالذّنب.

حضن يوسف يد مرام بين كفّيْه، وأضاف:

- والدكِ لن يعود يا مرام لأنّه أضعف من السّرّ الّذي يحمله، وأوهن من أن يمثل بين يديكِ مُجرمًا. لقد ضاق به المكان كما ضاق صدره بسرّه.

- لا أريده أن يعود. ولن أنتظر عودته. فمن رماني خلفه كعابرة سبيل لن أجعل له في حياتي مستقرًّا.

حضنتها أحلام من جديد وهي تقول:

- هذه هي مرام الّتي اعتدت عليها: قويّة، صلبة، تخترق الصّعاب.

- سأنفذُ من مشكلتي خالة، صح؟

- صح حبيبتي.

- أشعر بأن العالم يضيق من حولي ويُطبق عليّ ويخنقني بضيقه.

- مهما ضاقت الدّنيا وصغُرت يبقى هناك شقٌّ ينفذ منه النّور.

عندها، خرج سيزار عن صمته الطويل:

- سأجد حلًا مرام. أعدكِ بأن أجد حلًّا. لن أدعه يستأثر بكِ.

رفعت مرام رأسها عن صدر أحلام، والتفتت إلى سيزار قائلة:

- أتعرف ما أشدّ ما يؤلمني؟ أنّكَ تتجاهلني بعد أن كنت أجمل اهتماماتك!

كيف يصمد أمام نظراتها الّتي تتوسّله العودة إلى رحاب قلبها المكسور؟!

لا يعرف كيف سطت نظراتها وكلماتها على إرادته، فوجد نفسه كالطّير العائد إلى موطنه حاملًا كلّ تعب التّرحال!

وضع كفّه فوق يدها وهو يقول:

– أنتِ قدري مرام.

ثمّ رفع يدها حتّى لامس كفّها شفتيه. فلثمه بحنان ليعود بها إلى ذلك اللّقاء الحميم في سيّارته، حين قبّل كفّها وهو يقول: "تقبيل الكفّ هو عهد بين حبيبيْن بأن يبقيا معًا إلى الأبد".

صحيح أنّ للحبّ سحرًا عجيبًا ينتشل الروح من دوّامة الكآبة واليأس.

فها هي مرام بعد جرعة خفيفة من الحبّ تهبّ باسمة تقول:

– حتّى لو كان الوقت متأخرًا، فلا بأس من فنجان قهوة يُعدّل المزاج.

وما كادت تُكمل كلامها حتّى دوّى جرس الباب.

نظر الجميع إلى السّاعة؛ إنّها الحادية عشرة ليلًا.

فتمتمت مرام وسط صمت الجميع وقلقهم:

– أبي. هل يُعقل أن يكون أبي؟

أسرع الجميع إلى الباب. فتحه يوسف، وإذا بمحمود يقف أمامه.

القلق افترس الجميع... فصاحت مرام:

– عمّتي... هل أصاب عمّتي مكروه؟

أجابها محمود بصوت هادئ كعادته:

- الجميع بخير إلّا أنا.

ثمّ دخل وهو يضيف:

- أعتذر عن قدومي في مثل هذا الوقت. لقد سبّبت لكم القلق. فلم أستطع الانتظار للغد.

فبادره يوسف:

- أخبرنا محمود، ماذا حصل معك؟

وقف محمود وسط الغرفة ونظر إلى عيني مرام الذّابلتيْن من البكاء، وقال:

- أحمل ما يُجفّف دموع حزنكِ سارة... أعتذر لا يمكنني مناداتكِ باسم آخر.

- لا بأس محمود. وما هو الّذي سيجفّف دموعي؟

مدّ محمود يده إلى جيبه وأخرج ظرفًا، وقال:

- خذي سارة. عثرتُ عليه اليوم وأنا أساعد أمّي على إفراغ خزانة أبي، رحمه الله. إنّه يخصّكِ.

أخذت مرام الظّرف بلهفة وفتحته على عجل، فإذا بداخله رسالة صغيرة.

أخرجت مرام الرّسالة وقرأت بصوتٍ عالٍ:

"هذا ما استطعتُ تحويشه هذا العام. لا تبخل على سارة بشيء.

أنا بخير.

سميح."

شهقت سارة، وقالت باستغراب:

– كان يرسل مبلغًا من المال كلّ عام ولا علم لي بذلك!

ثمّ قلّبت الظّرف وأضافت:

– الرّسالة خالية من عنوان!

أجابها محمود:

– تقول أمّي وعمّتي إنّه تسلّمها من شابّ كان يأتي كلّ عام برسالة مثلها إلى والدي. لم يكن أبي يُفصح لهما عن مضمون الرّسالة. وهما أمّيتان ولا تجرؤانِ على التّدخّل في شؤون والدي. وظنّتا أنّ المال هو من عائدات مواسم الكروم.

– إذًا النّقود الّتي كان يمدّني بها عمّي لأشتري حاجاتي وملابسي هي من أبي! ومتى وصلت هذه الرّسالة؟

– تقول أمّي إنّها تسلّمتها قبل وفاة والدي بأيّام معدودة. وكان أبي في حالة غيبوبة. وإلّا كان سلّمكِ المال كعادته.

أخذ يوسف الرّسالة من مرام وهو يقول:

– لا شكّ في أمانة أبي محمود.

ثمّ أضاف:

– علينا تسليمها غدًا للمحامي.

سألته مرام:

– ستفيدني في المحكمة لأنّها تُثبت وجود أبي على قيد الحياة. صح عمّي؟

– حتمًا يا ابنتي.

فسارع محمود على الفور بالقول:

- وإن لم تُفدكِ سارة، لن أدعكِ تساقين إلى رشاد رغمًا عنكِ. سأقتله.

لم تتمالك مرام نفسها، فتجاوزت ما هو محرّم على ابن عمّها، وحضنته بقوّة.

ارتبك محمود وأبقى ذراعيه منسدلتين. فصاح به يوسف:

- محمود، هذه سارة الّتي تربّت على يديْك. احضنها.

طوّقها محمود بذراعيه وقبّلها في رأسها.

كانت ليلة فريدة لم تعشها مرام وكلّ من حولها منذ فترة طويلة؛ ضحك وسمر حتّى ساعات الصّباح الأولى. ثمّ غرقوا في نوم عميق على مقاعد غرفة الجلوس، ولم يستيقظوا إلّا على صوت أحلام.

- هيّا يا شباب، استيقظوا. القهوة جاهزة، وبهاء يودّ توديعكم قبل أن يذهب إلى المدرسة.

ودّعهم بهاء بعد أن احتفى بمحمود وانطلق إلى مدرسته. وغادر بعده محمود ليصل إلى القريةْ باكرًا، بعد أن ألحَّ على يوسف بأن يُخبره بكلّ ما يستجدّ مع المحامي. أمّا سيزار، فاصطحب يوسف ومرام إلى المحامي ليكونوا أوّل الواصلين إلى مكتبه.

وفور اطّلاع المحامي على الرّسالة، برقت عيناه فرحًا ونصرًا؛ فقد أكّد لهما أنّ عبارة "هذا العام" الواردة في الرّسالة، تؤكّد على وجود وسيط بين سميح وأبي محمود، يُرسل معه سميح كلّ عام مبلغًا من المال. وسيؤكّد ذلك في المحكمة من خلال الشّاهدتيْن: زاهية وأمّ محمود. وبالتّالي فإنّ صداق مرام على رشاد بوصاية

أبي محمود باطلٌ، بوجود والدها حيًّا وعلى تواصل مع من ادّعى الوصاية.

صحيح كما قال نابوليون: "لا مستحيل تحت الشّمس".

فها هي مرام تجتاز العتبة الخارجيّة للمحكمة ظافرة بحرّيتها. تمشي بين عمّتها وأم محمود وخلفها يوسف ومحمود وسيزار، بقلب مشرّع على الحياة، وبروح خالعة عنها كلّ القيود والهواجس، وبإرادة تتطاول على أفق مزروع بالأماني والأحلام، وكأنّ العمر ولد للتّو ساطعًا زاهرًا.

وما إن بلغ الجميع البوّابة الخارجيّة لحديقة المحكمة، حتّى كان لهم رشاد بالمرصاد.

استوقفهم بجسارة.

وقف أمام مرام، ثمّ قال:

– لا تعتقدي أنّ فراقكِ سيقتلني. ولا تظنّي أنّني سأغور في بحرٍ من الأحزان لأنّ حكايتي معكِ انتهت. ولا تتوهّمي أنّ أيّامي بعدكِ ستكون أوقاتًا سوداء ترشح ألمًا ودموعًا.

ثمّ أضاف محاولًا بنبرة صوته أن يستر الخيبة بنصر مزعوم:

– صحيح أنّ النّهايات تحمل كمًّا من الأسى. إلّا أنّ نهايتي معكِ تحمل ربحًا وانتصارًا؛ الرّبح لأنّني أسّستُ عملًا ناجحًا في بيروت. والانتصار لأنّني تخلّصتُ من خنوعي لك لسنوات.

قال له يوسف:

– يكفي رشاد. ابتعد عن طريقنا.

– لن أبتعد قبل أن أُنهي كلامي.

التفت من جديد إلى مرام، وقال:

- أنتِ ربحتِ الدّعوى سارة، وأنا ربحتُ نفسي بالابتعاد عن الإثم بمُعاشرة...

التفت إلى سيزار، ثمّ أكمل قائلًا:

- بمعاشرة عاهرة.

صاح به يوسف:

- اخرس، لعنك الله.

واندفع نحوه محمود وهو يقول:

- سأقتصُّ من لسانكَ يا سافل.

أمسك سيزار بمحمود ليمنعه من الوصول إلى رشاد. عندها، اقتربت مرام من رشاد أكثر، ثمّ أخرجت من حقيبتها ظرف الدّعوة إلى معرضها "رحلة هروب"، وقالت له:

- لقد نجحت في هروبي، ومنك أنت بالتّحديد. وها قد وصلت إلى برّ الأمان... لا بل إلى برّ الأحلام.

ثمّ دفعت بالظّرف إليه، وأضافت:

- خذ. هذه أنا؛ الفتاة الّتي حلمت بها وما نلتها أبدًا.

أسبوع واحد كان يفصلها عن موعد افتتاح المعرض. انصرف خلاله سيزار لتوزيع بطاقات الدّعوة، وتنظيم الحفل، وتوزيع اللّوحات في الصّالة. بينما طافت مرام في الأسواق برفقة أحلام وخالتها وابنة خالتها، لشراء الثّوب والحذاء المناسبيْن للمناسبة.

كان يوم الافتتاح صاخبًا من أوّله؛ اتّصالات تهنئة، زيارات غير متوقّعة من زملائها في الجامعة، تجهيز ما يلزمها من اكسسوارات، الذّهاب إلى مصفّف الشّعر...

وعند الخامسة، كانت مرام متألّقة بثوبها الأحمر القاني، الذّي يرفل فوق ركبتيْها وينسدل ناعسًا شفّافًا فوق ذراعيْها، تستقبل المدعوّينَ بفرح ما بعده فرح؛ وكأنّ الحياة كلّ الحياة تسري في عروقها.

كانت مرام تتوقّع هذا العدد من الحاضرين، نظرًا إلى علاقات سيزار من خلال شركته، وصداقات عمّها يوسف، وأقارب أحلام والزّملاء في الجامعة... لكنّها ما توقّعت أبدًا ما قام به سيزار.

كانت السّاعة تُشير إلى السّادسة، والقاعة تضجُّ بالحضور، ومرام تجول بين لوحاتها، تشرح وتستمع لتعليقات الزّائرين وعيناها ترقّبان المدخل بانتظار دخول سيزار.

وما توقّعت أن تتحوّل هذه الأوقات إلى أجمل محطّات العمر!

وسط قلقها لغياب سيزار وانشغالها بالمدعوّين، تناهى إلى مسامع الجميع عزف كمان رقيق.

لفّ الصّمت المكان. التفت الجميع نحو الباب، فإذا بعازف كمان يدخل الصّالة ليخترق فضاء المكان بمعزوفة رومانسيّة...

وأطلّ سيزار خلفه بقامته الفارعة وخطواته الواثقة يحمل باقة ورد، وراح يخترق الحضور ويتقدّم باتّجاه مرام على أنغام الموسيقى.

وقف أمامها... وصمتت آلة الكمان.

فقال:

- ما رأيتُ في حياتي أنثى تنتفض على الضّعف وتحوّله قوّة، وتستفزّها الحياة فتطبعها بلمساتها المؤثّرة.

فخور بكِ، مرام...

لا أعرف من أين أبتدي!

مشاعري تجاهك أعمق من لغتي ومفرداتي.

جئتُ لأستقلّ رحلة هروبكِ. أُريدها رحلة لنا معًا إلى حياة تَجْمعنا معًا ولا هروب منها للأبد. وسأقود أنا هذه الرّحلة لأمحو من ذاكرتك صور الماضي، وأطوف بكِ في عوالم السّعادة وعلى ضفاف الأحلام.

أيّتها الغريبة القادمة من خلف الأسرار...

أيّتها القريبة الّتي أقصتني عنها الأيّام...

تزوّجيني...

تزوّجيني وكوني أنثاي...

كوني المرأة الّتي تحتلّ أعماقي، وتملأ حياتي، وتبني بيتي، وتُنجبُ أولادي.

وتستمرّ الحياة

'لغة حقيقية ومشوّقة'
جريدة المستقبل

قرّرت سارة قطع كل صلة لها بماضيها حين نجحت في الهرب من ظلم عمّها وأحكامه الصارمة التي فرضها عليها باسم الدين. فقد أضحى هو وليّها بعد موت أمها واختفاء والدها.

في بيروت بدّلت اسمها إلى مرام وخلعت الثوب الديني الذي ألزمها به عمّها والذي كان يخفي جمالها الفتّان، وارتادت الجامعة كما حلمت على الدوام. لكن الماضي الذي توهّمت أنها تحرّرت منه، برز لها بشخص خطيبها رشاد الذي كتب عليها صداقه الذي يعدّ بمثابة الزواج، ومن حقه إعادتها إلى بيت الطاعة بحسب ما تفرضه قوانين الأحوال الشخصية.

شرعية الصداق لا يلغيها سوى طعن بوصاية عمّها، ومن أين لها ذلك وعمّها يناصبها العداء، وما من سبب وجيه يقنع المحكمة بوجوب التفريق، ووالدها الذي تبيّن لها أنه لم يمت، كما قيل، لا يُعرف له مكان؟

فدى أبو شقرا عطاالله كاتبة لبنانية. حاصلة على إجازتين في اللغة العربية والصحافة من الجامعة اللبنانية. تدرّس اللغة العربية منذ العام 2003.

لوحة الغلاف للفنانة عالية الفارسي



ISBN 978-6-14425-944-3
9 786144 259443 >